عبد الحميد بشارة
بائع المناديل
مجموعة قصصية

بائع المناديل

مجموعة قصصية

عبد الحميد بشارة

الكتاب: بائع المناديل
المؤلف: عبد الحميد بشارة
التصنيف: مجموعة قصصية
الطبعة: الأولي
مراجعة لغوية: حسن الشافعي
التحرير والإخراج الفني:
د. محمد حلمي حامد
الناشر: كتاب نون
الكتاب التاسع والخمسون
d.hlmi@yahoo.com
رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق:
٢٠١٣/١٠١٧٨
الترقيم الدولي:
٩٧٨-٩٧٧-٧٣٢ -٠٢٦-٩

كثير منّا يعيش حياته كما هي؛ بمتاعبها وألوانها القاتمة الباهتة، ويخدع نفسه أنه مستمر للإستفادة من التجارب، وأن حياته ما هي إلا (كالمسودة) التي حتما سيستفيد من تجاربها وقت تبييضها.
وتمرّ الأيام على هذه الوتيرة حتي ينفرط العمر دون تغيير؛ فيكون كصاحب البيت الذي غلبه النعاس واللص في بيته ..
سرق منه أجمل الذكريات.

ع.ب

ليلة
قصة مجنون
فنجان قهوة
متحف الأم
بائع المناديل
نيللي
كنت حبيبي
الملكة والقمر
كنت أظنه رجلا
الكابوس

ليلة

واختلست نظرة إلى عينيه اللامعتين المترقرقتين بالدمع ، ثم أحنت بصرها إلى أنفه وشفتيه الغارقتين في ماء المطر، ثم ثبت نظرها في وجهه وهو لا يشعر بوجودها بجواره.

كانت ليلة شاتية من ليالي فبراير القارص الماطر، هادئة من المارة غير مثقلة بحركة السيارات على كورنيش النيل ...

غابت النجوم في رحم الغمام المثقل بمائه، والذي يرسله على دفعات متوالية بانتظام ورتابة، ولا تزال الإضاءة تنير الطريق باستثناء بعض الأعمدة التي أصابها بعض التلف جرّاء المطر المنهمر، فتضيء مرة وترسل شرارها مرة أخرى كالبرق، فتشارك بفزعها برق السماء.
لم يكن الباعة الجائلون على توقع سيء لهذه الليلة، فإن الأصوات الأخيرة المترامية من أول الكورنيش لآخره لهم ما بين سباب للمطر وطرق أدواتهم التي يجمعونها في عجل، وكان أكثرهم سوءا وبؤسا بائع الجرائد الذي فسدت جرائده ومجلاته بالماء.

بدأ الكورنيش يفرغ شيئا فشيئا ، وتسارعت الخُطا تنسحب من تحت المطر إلى البنايات تحتمي بها، ورفع المارة جرائدهم وستراتهم فوق رؤوسهم ، وفزعت الهوام إلى الجحور ترزخ في الماء فوق الأديم خوفا من الغرق .

خلا الكورنيش وظل وحده يسير على جانبه الأيمن مرتديا البالطو الجلدي الممتد إلي أسفل الركبة بكثير، والقبعة والحذاء الواقي على الطريقة الإنجليزية، ووقف تحت إحدي الأعمدة ينظر إلى النيل، كانت الرؤية قاتمة بعض الشيء، فإضاءة الأعمدة في غياب القمر والنجوم لا تكفي في رسم صورة النيل الليلة بتمامها ورونقها المعتاد.
أمعن النظر في الماء لكن في شرود وهو ثابت لا يتحرك، تتساقط على أنفه وفمه قطرات الماء منحدرة كالشلال من قبعته، ويرسل من فمه أبخرة الصقيع كأن فمه فوهة بركان .
ظل يتابع تساقط المطر على صفحة النيل في شرود وتيه، كان هذا المشهد يستهويه من قبل، أما الآن فلا يجد فيه متعته الشاعرية مثلما كانت، ولم يعد يراه بنفس العين أو يستشعره بنفس الروح التي ولّت عنه.
وتوالت ضربات البرق في السماء بصوته المزعج، فتضيء السماء مرة وتطفئ مرة أخري، ورفع عينه إلي السماء وكأنه يسألها عن القمر الغائب خلف السحاب، فلم تجبه بغير ظلمة مرسومة في عين السماء تنبئه أنه ليس هنا.

فطأطأ رأسه إلى النيل وفاضت نفسه ببعض حديث لا يسمع: ما أشبه الليلة بقلبي، هي أنا بكل تفاصيلها ومفرداتها الأليمة، أشعر أن الهموم تكالبت عليّ كالغيمة، فانطفأ فيّ كل نور وبصيص، واختفي قمري خلالها فلا حبيب ولا صديق، ثم يمطر قلبي الآن أمطارا، قطرة واحدة منه لو نزلت على أيامي القادمة لاستحالت ليلا أسودا.

تزايدت فرقعات الأعمدة التالفة، وبدأ الظلام يحل مكانها، والشبورة تزحف على الطريق تخفي ما وراءها، كان هناك همس آتٍ من خلف الشبورة فنظر تجاهه شذرا بغير اكتراث نظرة عابثة لا أكثر، وعاد بوجهه العابث إلى صفحة النيل، وأخرج يده من جيبه وبسطهما نحو السماء كمن يدعو وظلت يداه منبسطة حتي امتلأت ماءً فشربه، ثم تنهد طويلا وجفف يديه في قميصه أسفل البالطو، وأخرج سيجارة فأوقدها لكنها لم تدم طويلا بفمه حيث أتلفها المطر المتساقط من قبعته فرماها بجواره.

زاد الصوت أكثر قادما من قلب الشبورة لكنه صوت مختلط لا يفصح عن شيء وسط ضربات الرعد وصفير الرياح المصاحبة للمطر، إلا أنه في جملته كخُطي سريعة تدب الأرض كأنها خطى هاربة يسمع للماء تحتها صوتا، وبزغ لعينيه ضوء خلالها فدقق النظر فرأي فتاة في أواخر العشرينات من عمرها ترتدي فستانا عاري الصدر والساقين ، يتبعها شابان على دراجة بخارية يسيران بجوارها في هدوء على خُطاها المقيدة بماء الأرض ويعترضنها ويضيقن عليها حتي وقفت فجأة وحدثتهما بصوت لم يصل إليه ما تقول، ولكنها أوهمتهما أنها لهذا الرجل هناك ينتظرها، ثم أسرعت الخطي إليه واحتمت بجناحه وتعلقت بيده، فوقفا على مقربة منهما، فنظر إليها نظرة فاترة جامدة وتحولت عيناه إلى الشابين بنظرة غاضبة مستأسدة فتراجعا وانصرفا ، ورمقها بنظرة وأحني عينيه حتي وصلت إلى عقدة يدها في ذراعه فسحبتها في هدوء وخجل مع ابتسامة طفولية ساحرة.
وهمّت بالكلام مفسرة، لكنه قاطعها بصمته وبصرف نظره إلى النيل.

فتأملته وأمعنت النظر فيه ، وسرحت ببصرها في جسده وكأنها تبحث فيه عن شيء، أعجبها فيه جسده الفارع المنمق، وبنيانه القوي المرصوص، وبشرته النيلية وشعره السائح المتهدل على أذنيه من أسفل القبعة.

واختلست نظرة إلى عينيه اللامعتين المترقرقتين بالدمع، ثم أحنت بصرها إلى أنفه وشفتيه الغارقتين في ماء المطر، ثم ثبت نظرها في وجهه وهو لا يشعر بوجودها بجواره.

فزعت فجأة لفرقعة إحدي الأعمدة بالقرب منهما فعادت كما كانت في يده وتعلقت بذراعة كطفلة صغيرة، فألقي عليها نظرة فاحصة، واغتصب ابتسامة مجهدة من قلبه البائس فألقاها على شفتيه ولم ينفرجا، كانت بيضاء ولكنها شاحبة فاترة الشفاه، ترتعد فرائصها وتصطك أسنانها من البرد في بهاء طفولي جميل لامرأة فاتنة الجمال بديعة الحسن ..

يتلألأ جسدها العاري في ضوء الأعمدة، وتتقطر من شعرها الأشقر مياه المطر منحدرة من علٍ في منظر بهي زاه، فتنزلق قطراته على جسدها كدحرجة الماس على سطح من البلور الشفاف، ثم سال الماء أكثر فعرج على شفتيها فأينعت وأزهرت في ضوء المصباح وضوء طلائها الأحمر.
وجرف ماء المطر ما بعينيها من كحل فاختلط سواده بنقاء وجهها الأبيض، فكان إمعانا في إبراز الجمال والفتنة الأنثوية، فهز رأسه وربت يديها في رقة حانية يطمئنها، وعاد إلى النيل.
وزادت الأمطار حدة ، وشاحت ببصرها تلقاء موضع بصره في النيل فكان يختلس النظرات إلى موقع حبات المطر على جسدها الفنّي، فنظرت إليه وابتسمت، فخلع عنه البالطو وألقاه عليها في حنو ولطف دون كلمة فتمتمت شاكرة، فلم يزد على ابتسامة صافية وساد الصمت ..
فكسرت هذا الحاجز سائلة في خفة:

ــ أنت متزوج؟

وكأنها وكأت جرحا أوشك أن يندمل، فبدت آثار ألمه في عينيه فأحمرت ونضح من صدره حمما في تنهدات بائسة، فسكتت ..

وعاد الصمت يرف المكان ويجثم عليه بروح ثقيلة، وهدأت الأمطار قليلا وانزاح الغمام عن القمر فأشرق باسما، فألقي بأشعته الفضية على صفحة النيل ووجهها فأشرقت في ضوئه كحوراء فاتنة، فأضاءت عينيها وثغرها البديع، وعادت فسألت

ـــ ما الذي أخرجك في ساعة كهذه وليلة كتلك؟

لكنه لاذ بالصمت، وارتسمت عليه علامات التبرم لهذا الحديث وإن كان صوتها مستعذب في نفسه، لكنها دون أن تشعر تضغط على جرح غائر موجع، وبهذا الصمت والاستياء ظنت ألا رغبة في وجودها، وشعرت أنها ثقيلة عليه، فسحبت يدها من يده في خفة، وبعدت عنه بخطوات وئيدة مصطحبة البالطو كما هو على جسدها، وألقت ببصرها إلى النيل وأخذت تختلس النظرات إليه تراقبه، وظل ينظر إلى القمر وكأن بينهما حديثا يفهماه عن بعضهما، ثم طأطأ رأسه وبكى، فأسرعت إليه وأخذت يده تقبلها واحتضنته، وسال دمعه السخين على صدرها !.

كانت الشبورة قد انقشعت قليلا حتي بدت خلالها مقدمة سيارته، فسارا إليها مترنحين كأن بهما سكر وعربدة ..
ودلفا إلي السيارة وقال:

ـــ اعطني السجائر في الجيب الأيمن.

وأخذ ينشف آثار المطر من وجهه، وأفرغ قبعته من الماء خارج السيارة ووضعها على المقعد الخلفي، وأخذ السجائر فأشعل واحدة، ودخنها بشراهه، فكان يصل بالدخان إلى أعماق أعماقه، كانت شديدة التحديق فيه وفي شفتيه وهي ممسكة بالسيجارة في فمه فقالت في هدوء:

ـــ ممكن سيجارة؟

فناولها علبة السجائر فأخرجت واحدة وأشعلتها، فدمعت عيناها وسعلت بشدة لكنها ظلت ممسكة بالسيجارة، فنظر إليها شذرا ثم نظر لزجاج السيارة الذي رانت عليه الشبورة والمطر فحجبت الرؤية فأدار المسّاحات فنظفته .
وتابعت تدخين سيجارتها وانتشت رئتيها وفمها لطعم الدخان فأخذت واحدة ثانية ثم ثالثة وهو يرقبها بطرف عينه في غير اكتراث أو اهتمام .
قالت كأنما تخاطب نفسها

ـــ لو أعلم ما بالتدخين من لذاذة ومتعة لمارسته من زمان مضى.
ـــ ولكن أمراضه الفاتكة أكثر.
ـــ لا بأس فعلام نخاف من الأمراض !

ألا فاسقني خمرا وقل لي : هي الخمرُ	ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهرُ
فما العيش إلا سكرة بعد سكـــــرةٍ	فإن طال هذا عنده ....

فتمتم معها وجرت على شفتيه تتمة هذا الشطر قائلين معا:
ـــ قصر الدهر.

ثم نظر إليها ووجهها غارق في سحب الدخان، وخلعت عنها البالطو ووضعته في المقعد الخلفي، وبدا جسدها الأبض الفاتن فابتسمت قائلة:

ـــ هذه إحدى خمريات أبي نواس ، لا تندهش فأنا ماجستير في الأدب المقارن ثم قريبا وبعد هذه الليلة وما جري فيها ماجستير آخر في قلة الأدب

وانفجر فمها ضاحكا ثم هدأت قليلا وترقرت عينيها بالدمع وبكت، ثم تماسكت وتنهدت طويلا مع خروج دخان كثيف من فمها.
اغتصبت ابتسامة ساخرة مثقلة بالهموم وقالت:

ـــ ما أجمل هذه الليلة الماطرة وقمرها الغائب، أراها ميلاد جديد.

ثم سكتت برهة وهو مصغ لألمها المسموع، ثم أردفت تقول:

ـــ ولكنه ميلاد غير شرعي.

وزادت ابتسامتها الساخرة إلى ضحك فقهقهة عالية، وانفجرت عيناها بالدموع رغما عنها، فاقترب منها في رقة حانية وأسكنها صدره وربت ظهرها ومرر يده في شعرها ..

ومرت دقائق على صدره حتي وقف مطر العين، ورجعت إلى جلستها الأولي وأشعلت سيجارة، وأحنت مقعدها للخلف كأنه سرير، وقالت:

ـــ كيف تراني الآن.

خفتت الإضاءة داخل السيارة ، فأحنى رأسي ينظر من خلال الزجاج الأمامي فوجد القمر يتوارى من جديد خلف الغيمة، ورجع إلي عينيها قائلا:

ـــ كيف ترى نفسك أنت؟

شردت ببصرها في سقف السيارة ممسكة شفتها السفلي بأسنانها وسكتت لبرهة، ثم أرسلتها في هدوء وقالت:

ـــ منذ زمن توقفت عن رؤية نفسي، وكنت أراني بعين الآخرين.
ـــ عقبة كؤود أن نجعل من عين الآخرين رقيبا وفاصلا في سلوكنا وتصرفاتنا.
ـــ ليست كل عين، فهناك عينٌ ترى في نظرتها الحياة وأسبابها وسعادتها، فلا يسعك إلا أن تمرح في تلك العين بين وديانها وجداولها كالطفل الصغير ..

ثم سكتت، وأرعدت السماء وبرقت وأرسلت بعض زخاتها الممتلئة ..
أردفت قائلة:

ـــ ولكن لحسن الحظ وسوئه، أن بمرور الوقت أكثر أصبحت هذه العين عمياء، أو جحيما متقدا.
وأخذت شهيقا من السيجارة، وأرسلت دخانه إلي رئتيها في نشوة قاتمة، ثم نثرت رماد السيجارة على صدرها وأخذت تفرّقه بيدها على ثدييها كأنها تدلكهما به، فخفت صدرها الأبض وانطفأت لمعته الفاتنة، وهو ينظر إليها في دهشة، ارتسمت في وجهه علامات استفهام لما تفعل، فبادرته قائلة:

ـــ لا تعجب، فصدري أكثر الأشياء يحبها في جسدي مع أشياء أخرى، لكن صدري متوج على مفاتني في عينيه، يأخذه الجنون إذا تفننت في إبرازه وتهيئته، ألا تراه كثمرتين ناضجتين في موسم الحصاد تهيأت الأسباب لقطفهما .

ثم ضحكت ضحكة غاضبة وقالت:

ـــ ولكنه لجهله ظنّ أنهما قد يعصرا في أكواب على مائدة في جلسة ضيافة.
حاول تهدئتها ببعض الكلمات وأطلق يده في شعرها، ثم سكتا طويلا ..
قال بنبرة هادئة:
ـــ ما اسمك؟
فرفعت يده عن شعرها وألقت بخدها في كفه وأغمضت عينيها وقالت:

ـــ سمّني أنت!
فنظر إليها ثم إلى الطريق أمامه الغارق بمائه وإلى السماء الغارقة في سحب المطر الخالية من قمر ونجم، ورجع إليها ببصره قائلا:
ـــ أري أن حياتنا لا تبعد كثيرا عن هذه الليلة وما فيها، فأراني وإياكي صفحة من كتاب الناس وليلة من ليالي البشر التعيسة.
ففتحت عينيها وابتسمت قائلة:
ـــ صدقت .. أنا ليلة.

*****

قصة مجنون

والقلب إذا استجمع عليه حب شيء واستعصي عليه ولم تكن له من أسباب ليصل إلى ما يحب دخل اليأس إلى هذا القلب من أوسع أبوابه ..

في ليلة من ليالي الصيف الحارقة التي تنفي فيها البيوت رجالها إلى المقاهي كما ينفي الجسد أذاه، اكتظ المقهى برواده وتراكمت سحب الدخان المنبعثة من النراجيل في سقفه حتى يظن المار أمامه أن قنبلة قد انفجرت بداخله، وعلت طرقعات الدومينو على صفحات الموائد كطرقعات المدافع، وارتفعت الأصوات الصارخة تنادي النادل بطلباتها اللامنتهية .. فتحول المقهي إلى ما يشبه ميدان معركة ...

وفي المقاهي الريفية في ذلك الوقت لم يكن ثمّ متعة أو ترفيه غير ألعاب المقاهي المعتادة كالطاولة والدومينو ، ثم التليفزيون وجهاز الفيديو قبل أن تكون هناك أجهزة استقبال لما ترسله الأقمار الصناعية ، وكان رواده ولعين بالأفلام الهندية والتي تثير في أنفسهم دهشة وإعجابا بفنونهم القتالية ، واستعراضاتهم الراقصة .

انتهى به السير إلى مقهى المعلم عباس عبد الرحيم ، ذلك المقهي العتيق الذي كان مأوى العاطلين والمجرمين وروث القوم من أهل القرية ، وكان مدرسة لتخريج صبية متسولين وتجار مخدرات، جلس الأستاذ ينتظر صديقا ليمضيا معا لبعض شأنهما ـهكذا كان يقولـ وطال مكثه حتى تهافت عليه الأطفال المتسولون ومندوبو توزيع المخدرات.

لم تزعجه هذه الصورة البائسة من صور انحدار المجتمع وتحلله من قيمه وأخلاقه ، إنها صورة عامة في الأرياف والمدن وإن كانت هاهنا أقل نطاقا، ومما يضيقها أكثر أن ممارسيها يوضعون في أرذل الخانات الاجتماعية الريفية ، حتى لقد كان لوقت قريب في هذه القرية أن الشاب المدخن ـ فقط ـ توضع حوله الدوائر ، لكن لم يشأ مغادرة المكان ، فليتعرف عن قرب عن هذه الفئة المتصلة بالمجتمع الكبير بشكل أو بآخر ، ثم لا يبعد أن تحرك من مكانه ووقف جانبا على قارعة الطريق أن يجد قطّاع طرق بصفته غريب عن القرية كما يبدو عليه.

ترامي إلى أذنيه حديث رجلين قريبين منه عن ضعف توزيع الحشيش وأن الأهالي أصبحوا أشد بأسا وأحكم قبضة مع أبنائهم عن ذي قبل ، حتى الرجل المتعاطي الذي

بلغ حد الإدمان يحاجي علي أبنائه ألا يصيبهم ما أصابه ، فانتشي وتهللت أساريره ، وتدخل في حديثهما وأراد نصحا وإرشادا ، فمال على أحد الرجلين قائلا:

ـــ أأنت تاجر مخدرات ؟

فارتا ع الرجل وبرقت عينيه ، ونظرا إلى بعضهما في ارتياب ، وقاما مسرعين إلى المعلم عباس يطلعانه بأمر الرجل ، وفرا هاربين تحسبا أن يكون (حكومة) أو عينا لها.
وما هي إلا لحظات حتى آتاه المعلم عباس يجر أذيال أردافه المثقلة بشحومها ، يتقدمه كرشه العظيم ، وترتجف ألداغه كراية العلم إذا مسها النسيم ، حتى وقف عند رأسه وقال بلهجة غليظة غاضبة.

ـــ أؤمر يا بشمهندس ، طلباتك.
فهم بالكلام فقاطعه مسرعا:
ـــ لا يوجد!

شعر أنه غير مرغوب في وجوده ، وانتبه رواد المقهي لوقفة المعلم عباس معه ، والتي تدل علي شيء يفهمونه ، فترك كلٌّ ما في يده وتأهبوا لفعل شيء ما ، كان يجهله لكنه على أسوأ تقدير سيكون شيئا غاية في السوء ، فتلطف في حديثه وقال يتألفه:

ـــ أهدأ يا معلم، أين كرم الضيافة.

فقال المعلم رافضا وجوده مشيرا إلى الطريق بيده:
ـــ رحم الله كرم.

نكّس رأسه قليلا وغلت كالمرجل لعنجهية المعلم ، لكنه أصر على التواجد لكن ببعض التنازلات، فأخرج حافظته من جيبه وأخرج منها بطاقته الشخصية وناولها له ، فأخذها وأمعن النظر فيها ، التف حول المعلم بعض الرواد ينظرون إلى بطاقته ، يتردد نظرهم بينها وبينه ، وساد بعض الوجوم حتى علا صوت أحدهم ضاحكا يقول:

ـــ يا غلبان .. مدرس ابتدائي .. مشاريب الأستاذ عندي يا معلم.

وعلت الضحكات الساخرة منه ، وانفرج فم المعلم عما يشبه الكهف حتى بدت أسنانه كأحجار صفراء قاتمة ، وضحك الأستاذ تصنعا وامتلأت المقاعد كما كانت ، وجالسه المعلم بعدما اطمئن له ، وأخرج علبة السجائر وناوله سيجارة (شعبي) فبادره الأستاذ وأخرج علبة سجائره وناوله واحدة.
ـــ عفوا يا معلم، واجب علينا.

برّقت عين المعلم وفغر فاهه ، قلق الأستاذ لنظراته الغير مفهومة ..
ـــ خير يا معلم، أعتذر لو أسأت!
ـــ مدرس ابتدائي وتدخن أفرنجي، أم تكذب علينا!

تمالك نفسه ورد بثقة مهونا من الأمر وهو يلوح بعلبة السجائر
ـــ يا معلم ، إنها ليست سجائري .. وجدتها ملقاة بطريقي إلى هنا.
أخذها أحد المتسولين من يده فجأة وهو يقول:

ـــ الحمد لله سجائري ردّت إلىْ.
ضحك المعلم بملء فيه ، وناوله سيجارة من علبته

ـــ أرزاق ، المتسول يدخن أفرنجي والمعلم والأستاذ يدخنا شعبي ... زمن.
ـــ فعلا أرزاق.
ـــ الله يرحمها!
ـــ من يا معلم؟
ـ أرزاق، أخت كرم.
وراحت ضحكات المعلم تهز أرجاء المقهي حتى هدأت عاصفته السمجة وقال:

ـــ قل لي يا أستاذ ، لماذا حضرت إلى قريتنا؟
ـــ لي صديق هنا أنتظره ، سيأتي بعد قليل يصطحبني إلى بيته.

ــ آنستنا وشرفتنا.
ــ الله يحفظك.
وقام المعلم بضيافته كعادته مع الغرباء وأحسن إليه وطال الوقت أكثر ونضحت سريرة المعلم بما أخفته من أسرار تحت وطأة السمر الليلي الذي لا ينتهي حديث إلا بحث المتكلم عن حديث آخر يقطع به الصمت ...

مرّ بهما شاب في الثلاثين من عمره وضّاء الوجه مشرئب بحمرة ، يتهدّل شعره على عينيه كحرير على جسم حسناء ، لطيف الملامح ، لا تحسبه إلا أنه (ابن ناس) كما يقول عنه من لا يعرفه ، يشبه الأستاذ إلى حد ما في صفاته الجسمية والوصفية ، إلا أنه على لوثة من جنون ظريفة ، كان حضوره بالمقهى مصدر سعادة وترفيه للحاضرين كأنه فقرة على مسرح ، حيث كلامه المختلط الغير متزن ، وأحاديثه الساذجة عن رحلاته ومغامراته في الغابات ورؤوس الجبال ، ثم هزيمته لأعظم فأر شهده التاريخ في موقعة منذ مائة وعشرين عاما والتى يذكرها دائمًا.

جلس بمفرده وأحضرت له نرجيلة ، ووضع عليها النادل قطعة من الحشيش.
وما أن رأوه حتى تهللوا بهجة وسرورا ، وبدأ البعض في غمزه ولمزه يستفزونه حتى يبدأ عرضه مبكرا ، وعلى الفور استجاب وبدأ يهذي بكلام مثير للشفقة أكثر مما يدعو للضحك ، وعلت الضحكات ، وقهقه المعلم بصوت كأنه صخور تنحدر من علّ ، ثم خبتت ضحكته ، وشعر بمرارة بائسة وتاه لدقائق وصوب نظره لهذا المجنون ثم أطرق مليا إلى الأرض ..

ــ مالك يا معلم.
ــ لا شيء!
ــ هل هو أحد أقربائك؟
ــ لا ولكن قصة هذا الشاب مؤلمة حقا.
ــ مؤلمة .. كيف يا معلم؟
ــ نعم مؤلمة و أكثر ، حسين من شباب القرية المعدودين الذين كنا نتوقع لهم مستقبلا باهرا وحالا سعيدة غير حالنا نحن الآباء الذين روحنا ضحية الجهل والفقر ، ومن

المعدودين الذين وصلوا إلى التعليم الجامعي ، ونزل القاهرة طالبا منها العلم والمعرفة ، ومع أنه من أسرة فقيرة معدمة تعيش على فتات ضعيف يكسبه والده من محل بقالة إلا أن والده تعهد على نفسه أن يحسن تربيته وتعليمه هو وأخوته ، وكان يقول دائما: إن كانت الحياة قهرتنا بالفقر فسنذلها بالعلم ، فأخذ على عاتقه هذا الهم ، فعمل ليل نهار حتى استطاع أن يوفر له سبل الحياة المريحة وقد كان .

ـــ أي شيء قد كان يا معلم؟

وقف النادل بجوار النرجيلة ليضع حجرا آخر للمعلم وأشار له إشارة يفهمها فأومأ المعلم برأسه موافقا ، فوضع عليها قطعة من الحشيش ، وأخذ في تدخينها لحظات حتى سعل بحدة فناولها للأستاذ ، فما كان له أن يرفض ودخن معه نرجيلته المطعمة بالحشيش ..

وتابع المعلم حديثه قائلا:

ـــ حتى تخرج بالشهادة الكبيرة ، ولم يسعفه الحظ سريعا بالتعيين في وظيفة حكومية كما كان منتظرا ، فهون أبوه الأمر عليه ووصاه بالصبر وأوعز إليه القيام على شؤون المتجر حتى تواتيه الوظيفة ، وكما تعلم يا أستاذ أن ربنا خلق الناس درجات في كل شيء في الصحة والمرض والقوي والضعف والجهل والعلم والغني والفقر ، لكن الإنسان كعادته لا يملأ عينه إلا التراب إذا كان غنيا أو فقيرا ، في الوقت الذي ينبغي فيه أن يملأ قلبه بالرضا والقناعة ، فكان يتطلع إلي المال ، ولا ينفك مفكرا فيه وفي جمعه ، لكن من أين له ؟!! ، والقلب إذا استجمع عليه حب شيء واستعصي عليه ولم تكن له من أسباب ليصل إلى ما يحب دخل اليأس إلى هذا القلب من أوسع أبوابه، فكان ينظر إلى أهل الرغد والمال في قريتنا ممن هم في مثل سنه فيتأمل ملابسهم وسياراتهم فيتحسر ، مع أنهم لم يبلغوا بتعليمهم إلى الإعدادية وهو الأستاذ صاحب الشهادة الكبيرة ، إلا أن السخط على حاله قد سد عليه كل عين تري الحقيقة ، فتودد إليهم ، وتردد على مجالسهم ، حتى امتد إليهم بسبب وأصبح واحدا منهم ، أو بالأدق كرسي جالسا بينهم ، وكانت مجالسهم لا تخلوا من المخدرات وحبوبها ، بل كانت هي سبب تجمعهم ولقاءاتهم ، وكان يرى إنفاق المال بسخاء على المخدرات في جلسة واحدة ما ينفق عليه وعلى إخوته وأبيه وأمه في أسبوع ، فازداد قنوطه ، فأصر على أن يكون

أحد الأثرياء ، وظن بجهله أن الثراء بدايته ثراء العقل بالمخدرات ، وأن تناوله دليل على غني صاحبه فقارعهم ، وكان جلسائه من هذه الطبقة يملؤهم الحقد الدفين تجاهه؛ لأنه الوحيد الأستاذ بينهم ويشعرون بالنقص تجاهه ، فعملوا على أن ينزل إلي حضيضهم ، وبجهله أيضا ظن أنهم أحبوه لذلك يتوددون إليه ويرفعونه لمرتبتهم.

وسكت المعلم ، كان حسين لا يزال في عبثه وهذيانه يدور على النراجيل فيرتشف منها ما اتسع له صدره ، ثم يسعل حتى يشفق وجهه ويحمر ، وقام له بعض الروّاد فتحلقوا حوله يسكبون عليه ما تبقي من البيرة في زجاجاتهم ، فتحول عنهم المعلم بنظره إليّ ، وتنهد في أسى فناولته النرجيلة وتنفسها ...

ــ وماذا كان بعد ذلك يا معلم؟
ــ عرف عنه بين مندوبي المخدرات أنه زبون ومتعاطي وابن (كيف) فكانوا يذهبون إليه في المتجر فمرة يعطيهم من مال أبيه ، ومرة يبادلهم بسلع المتجر ، حتى علم أبوه بسرقات ابنه وتعاطيه المخدرات ، فمنعه من دخول المتجر ، وهم بطرده من المنزل إلا أن أمه بكت بمرارة كعادة الأمهات ، وتوسلت إلى أبيه فأبقاه مشترطا أن يصلح من حاله ، ولا يمضي في طريق المخدرات.
وأصبح خاوي الوفاض ، فلا مال ولا معاملة حسنة من أبيه ...

ــ إذن كان أبوه سببا في حالته حيث لم يحسن تأهيله ولا تصرفه في هذا الموقف.
ــ كلا .. كان أبوه من أكثر الناس حبا لأبنائه ، وما فعل ذلك إلا تربية وتأديبا ، ولكن من جهل الابن أنه لم يذعن للصواب حينما بدا فحش خطأه ورزيته ، ومضي لاعنا لكل ما حوله غاضبا على الدنيا ومن فيها ، والتحم أكثر بأصدقائه حتى أدمن المخدرات ، وفي ليلة ما بعدما تأكدوا أنه قد تلوث بهم وأدمن ، أرادوا إبعاده فقالوا له: إن عليه إلى آخر الشهر أن يشتري لهم من ماله ما يقيم أود جلستهم من مخدرات وغيره ، فرجع إلى بيته مهموما تعسا خاصة أن أحدهم أشار إلى أنه يدخن بشراهة دون أن يروا منه شيئا وكأنه في سبيل خيري.

بدأ المقهي يخف من روّاده ، ولا يزال البعض متحلقين حول حسين يتلقفونه ويعبثون به حتى وقع أرضا من الإعياء والتعب فانصرفوا من حوله ، ولم تمد له يدا تجلسه ، فقد كان طرحه أرضا مدعاة للسخرية والضحك كذلك ، فلهث حتى جلس على كرسي ورشف بعض الماء ، وأغمض عينيه وغفا ، فقام أحدهم يتسحب نحوه في خفة وأخذ الكوب من يده في غفلته وألقاه على وجهه فقام فزعا في حركات بهلوانية انفجر لها الجميع ضحكا ...

أرتسمت علي وجه الأستاذ سيم الآسي والحزن لما يحل بالمجنون وقال:
ــ وماذا بعدما غضب عليه أبوه ولم يعد له مال ينفقه على المخدرات
ــ أتاني يستعطفني أن أعطيه بعض الحشيش وأن أرجئه في السداد فأعطيته ، لكني أسديت له النصح أن يترك هذه الطريق ، فأبي وكما نقول (ركب رأسه)
قال الأستاذ وعينه تتردد بين المعلم والمجنون
ــ ألا ترى يا معلم أن أبلغ النصح في هذه الحالة أن تزجره بعنف وتمنع عنه
ــ يا سيدي .. عرضت ما هو أفضل من ذلك ، قلت له أن يتزوج ابنتي ولا يحمل عبء شيء لكنه أنف أن يكون صهرا لتاجر مخدرات ..

ضحك المعلم وأردف قائلا:
ــ يال السخرية .. لكني لم أمنعه بعدها طلبا يطلبه من باب التجارة ، ففرحتنا نحن التجار بالزبائن الجدد كفرحتنا بمولود جديد إذ ننظر إليه أنه باب جديد للرزق يجب الحفاظ عليه حتى لو تعثر ، ومرت الأيام وزاد دينه فأمسكت عنه، وأوصيت (صبياني) ألا يعطوه شيئا ، ومرت ثلاثة أيام لم أره ، فسألت عنه فقيل لي إنه انضم إلى أصدقاء من العزبة فترحمت عليه وقتها ..
ــ وماذا في ذلك يا معلم ؟
ــ يا أستاذ العزبة هي مربع سكني في جنوب القرية تشتهر بخلطات كيميائية متعددة من الحشيش وحبوب الأعصاب وأدوية السعال وغيره ، أدوية الواحدة منها لا تصرف إلا (بروشته) وفي أضيق الحدود وتحت إشراف الطبيب ، ثم ظهر على هذه الحال مجنونا شقيا.

قال محتدا غاضبا:
ــ إذا أنت أسهمت في دمار الشاب وتحطيم مستقبله وحزن أبيه وأمه عليه ومعرّة عائلته به.

تنهد وقال مهدئا:
ــ يا أستاذ ، لا تهوّل الموضوع فالجهل هو السبب ، ولكل شيء في الحياة معين ، فما إن تشأ أن تستقيم إلا وجدت من يعينك على الاستقامة ، فقط ابحث عنهم ، وما إن تشأ أن تحيا جاهلا إلا وجدت من يعينك كذلك .. وأشار إلى نفسه.
ــ وما زلت يا معلم تتاجر في المخدرات بعد كل هذا الفساد!!

تخشن صوته قليلا لمقالته:
ــ حسّن كلامك يا أستاذ ، هذا رزقنا ماذا نفعل؟
ــ الرزق من الفساد والتدمير وخراب البيوت تسميه رزقا!
ــ إهدأ يا أستاذ ... كفاك إنكار علينا نحن تجار المخدرات ، أليس الطبيب يرزق من المرض ، والمحامي يرزق من المصائب؟
ــ فلسفة سيئة لا تصلح من فسادك شيء.

ضجر منه المعلم واستثقله ، ونظر في ساعته وقال:
ــ لماذا لم يأت صديقك إلى الآن؟ فقد تأخر ونحن على وشك أن نغلق المقهي ، أم تشرفني وتقضي ليلتك عندي.
هبّ واقفا في وجه المعلم وقال:
ــ شكرا يا معلم ، بل أنت من ستقضي ليلتك عندي.

وأخرج مسدس من جانبه ، ودخل أربعة رجال من الشرطة وأحاطوا المعلم ، وانتشر رجال الأمن بالمقهى فجأة ، فارتاع المعلم وجحظت عيناه دهشة فقال:
ــ وشيت بنا للحكومة يا أستاذ.
ــ لست أستاذا ، بل الرائد حسن عبد اللطيف أخو حسين الأصغر ، وقد كان من فضل الله على أبي أن رحل إلى القاهرة وابتعد عن هذا المستنقع القذر ، وأكمل

تعليمي وإخوتي وتوظفت بالشرطة .. وبعد أن دخل أخي المصحة لمدة عام ، حتى شارف الشفاء ، فرّ هاربا وأتي إليكم ، وعندما حضر أبي يبحث عنه أنكرتم وجوده ... يا لكم من قذارة.

وأشار إلى العساكر أن يضعوا الحديد في يده ويأخذوه إلى عربة الترحيلات ، واتجه إلى أخيه فأيقظه من غفوته ، فقام مفزوعا ، فاقترب منهما بعض الجنود فأشار لهم أن يبتعدوا ويتركوه واحتضنه وقال:

ــ ستدخل المصحة من جديد ، وستعود عاقلا من جديد.

*****

فنجان قهوة

وكثير من الأشياء ارتضى قلبها أن يـنفق عليها من حبه ؛ كـي تستسيغها من أجله وأن تشاركه كل لحظاته وحالاته.

جلست في شرفتها شاردة ، تنظر إلى فنجاني قهوة أمامها وكأنها تحدثهما ، يتردد بصرها بينهما وبين مقعده الشاغر، يدور بخلدها ذكرياتها الجميلة وقت خطبتها ، وقت أن كانا يزرعان أحلامهما معا.
ولم تكن لتنسى حتي أصغر الصور التي رسماها ، ولو كانت لاحتساء القهوة .
هي لم تكن تحبها أو تستسيغها ، ولكنه كان مولعا بنكهتها ؛ فأحبتها من بعض حبها له ، وكثير من الأشياء ارتضي قلبها أن ينفق عليها من حبه ؛ كي تستسيغها من أجله وأن تشاركه كل لحظاته وحالاته.
قال لها ذات مرة:

ـــ أعلم أن القهوة مضرة ، ولكنها مضرة لذيذة أهواها.

فقالت وهي تميل عليه في رقة الزهر إذا داعبه النسيم:
ـــ ولكني سأمنعك من كل ضرر.
ـــ لا بل ستشاركينني في احتسائها.

فابتسمت قائلة:
ـــ تريدني أن أشاركك ضررها ، أم لأبق بجوارك وبصحبتك.
ـــ لا هذا ولا ذاك ، ولكن من لم يحسن تذوقها لن يحسن صنعها.

فانكمشت ابتسامتها ، فداعبها واعتذر أنه لم يقصد ما فهمته:
ـــ حبيبتي .. إن كل أحلامي أن تشاركيني كل أوقاتي ، ولا أجد نفسي ـلحظةـ بمفردي دونك.

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة رضا وقالت:
ـــ إذن سأشاركك ، ولكن عليّ أنا أن أضع طقوسها وتنظيم مواعيدها ، بعد الغداء كل يوم حين تشفق الشمس ، سيكون ذلك أرق وألطف.

فقال راضيا:

ــ وأنا لن أذوقها في عملي حتي أعود إليك.

فقامت من جلستها فقال:
ــ إلى أين؟
ــ سأحضر فنجانين من القهوة ، ألا ترى الشمس قد أشفقت وأذنت بالمغيب.

ثم ابتسمت بسحرها وأردفت قائلة:
ــ وسيكون هذا أول فنجان قهوة في حياتي احتسيه لأجلك.

اتصلت به هاتفيا لتأخر حضوره ، لم تكن لتميز صوته لطرقعات (الدومينو) بجواره ، فسألته عن تأخره ، فأخبرها أنه بصحبة بعض أصدقائه في مقهى بجوار العمل ، ووصل إلى سمعها أنه يطلب من النادل قهوة .
انتهت المكالمة ، وابتسمت ساخرة إلى قهوتها ، وقامت إلى مطبخها فأفرغتهما فيه ، ثم رجعت إلى شرفتها تتأمل الطريق في شرود ...

*****

متحف الأم

فارتسمت الغرفة كلوحة تجلى فيها ببراعة مؤلمة معاني الفراق وبؤس الأمومة في وحدة تعساء.

مع دخول أول شعاع لشمس يوم الجمعة إلي غرفتها قامت من فراشها فزعة وكأنها رشقت بسهم، فقامت مسرعة تغسل ما علق بأهدابها من آثار النوم ، ثم تحركت في نشاط غير معهود لكي تحسن استقبال زوارها في هذا اليوم ، فلم يكن ينهاها مرضها وشيخوختها عن التكلف ببذل جهد يفوق طاقتها المحدودة بالوهن والضعف لمرضها العضال الذي أنهكها ويأست من شفائه ، لكي يخرج هذا اليوم في أبهي حالة تسعد أبناءها سمير وجمال وهنا.

فكانت تقضي ليلتها في التجهيز والتنظيم حتي يصيبها الكلل والتعب ، ثم تصبح على أمرها في مطبخها لنضج الطعام وتهيئته ، حتي إذا فرغت اتجهت إلى حديقة البيت تنظفها وتلتقط أوراق الأشجار ، وما ذرته الرياح الليلية فوق البساط الأخضر كي لا تتأذي الأحفاد.

ثم تعرّج على الملاهي الصغيرة التي أنشأتها ليمرحوا بها وقت الزيارة فتنظفها جيدا ، حتي إذا فرغت أخذت تهندم الكراسي والنضد بفرحة ونشوة كبيرة .
شعرت مع الانتهاء بوخزات مؤلمة تدب في أوصالها الضعيفة تترجمت في كلمات توجع وأنين فاربد وجهها وعلته سيم المرض المعهودة من اصفرار قاتم ، فأخذت تدلك عظامها بيدها واضطجعت على مخدع الكرسي لتهدأ ، وبعد برهة قامت فزعة واتجهت إلى مطبخها متحدية ألمها ووجعها المسموع مع خطواتها الوئيدة ، فأطفأت نيران المطبخ لنضج الطعام وأخرجت الفاكهة فغسلتها وعصرتها ثم وضعتها في زجاجات وقامت بوضعها حيث برودة الثلاجة.

دقت الساعة معلنة تمام الثانية عشرة ظهرا ، فاتجهت نحو حمامها فاغتسلت وتعطرت وكأنها عاشقة تنتظر إلفها الغائب.

كانت تعيش بمفردها في هذا البيت الواسع المترامي بلا أنيس ولا زائر من الأقارب أو الأصدقاء، فلم تشأ في بداية حياتها الزوجية أن يكن لها صديقات ، بل ارتضت لنفسها أن تبقي منعزلة عن أي علاقة اجتماعية من شأنها أن تنال من وقتها الموقوف على حياتها الأسرية ، فكرست حياتها لأسرتها وزوجها ، وأخلصت كل الإخلاص في

خدمتهم وسعادتهم وإدخال البهجة عليهم ، وكانت ترى أن المرأة إذا وجدت السعادة في البيت بين زوج حنون يحبها ويقدرها ، وأبناء يملؤون سماءها وأرضها حبا ولطفا ، فما لها والمجتمع وعلاقاته التي تستنزف الوقت في غير طائل ...
فنسيت الناس ونسوها ، وصارت ذكري في أحاديث صديقاتها القديمات أيام كن عصافير حالمات لم يطرق بابهن الرجال.

وانقضي عمرها في مثالية تامة متسقة مع ما بداخلها من عطف وحب لأسرتها حتي توفي زوجها منذ ثمانية أعوام ، فدبت فيها الشيخوخة فجأة واشتدت وطأتها ، وعبث بها المرض ولهي ، وتلقفتها الوحدة ووحشتها ، ولم يعد لها متنفس سوي هذا اليوم ، ولا باب مفتوح بينها وبين الحياة غيره بعد وفاة سلوتها ورفيق عمرها ...

انتهت من ارتداء ملابسها وتهندمت وتعطرت بفرحتها وتزينت بنشوتها للقاء الأحبة ، وجلست في شرفة البيت تطالع باب الحديقة والطريق ، ومرّ بها بعض الوقت فغشاها اللقاء المنتظر بفرحة عارمة ولوعة اشتياق فاستبطأت الوقت ، فتناولت مجلة بجوارها وأخذت تقلب صفحاتها واحدة تلو الأخري حتي انتهت إلى غلافها ، ثم تناولت مجلة بعد أخري حتي دقت الساعة معلنة الخامسة مساء ، فقامت إلى الطعام تنظمه على المنضدة الكبيرة ، فوضعت الأطباق الكبيرة ، ثم أطباق الأطفال الصغيرة ، ثم صعدت إلى المطبخ وأحضرت الطعام وبسطته في الأطباق وغطته.
وانتظرت ...
ومر الوقت أكثر .. فانتابتها رجفة خوف ألا يحضروا ، وغابت الشمس في شفقها ، وما لبث البيت أن حلت عليه ظلمة المساء كالخيمة، وظلت جالسة في ظلمة الحديقة يهمس إليها القمر ببعض النور على وجهها ، وامتدت أشعته علي بعض المائدة فأضاء بعض أطباق الطعام.

ومر الوقت الكثير وهي جامدة سابحة في فكرها ، فقد كانت تأمل أن تختلف هذه المرة عن سوابقها بعدما علموا بزيارتها الأخيرة إلي الطبيب الذي نهاها وحذرها عن بذل أي مجهود ، فلربما كسروا الحاجز الزمني الذي فصلهم عنها الفترة السابقة والذي امتد إلى خمسة عشر شهرا بلا زيارة أو سؤال إلا منها إليهم ، لكنها دائما كانت تظل هكذا

منتظرة حتي منتصف الليل فقلبها المفعم بالحب والشوق لا ينفك عن أمل ، ولكنه أمل كاذب لم يلبث الوقت أن يفضحه.

ارتسم على وجهها الأسي وتندت أهدابها بالدموع ، وأرسل صدرها المحترق زفرات خرجت كتأوهات ميت في سكراته وبصوت متهدج كأنه الحشرجة الفاصلة بين الموت والحياة.

وعلا الصوت مع تجدد الذكرى في فكرها إلى صراخ ، ووضعت رأسها بين كفيها ، وانهمرت سحابة عينيها المثقلة ، فجرى ماؤها السخين بين جداول الوجه المسن المجعد فملأته.

وهمّت بالنهوض من مكانها فلم تستطع ، فتحاملت على أعصابها وسارت بضع خطوات لكن الألم كان أسرع لعظامها منها إلى الفراش ، فانكفأت على وجهها فدمي فمها وجبهتها ، فزاد بكاؤها وتوجعها ، واستجمعت ما بقي بقاع إرادتها من قوة ونهضت متكأة على جدار البيت ودلفت إليه وأضاءت بعض أنواره تاركة الطعام خلفها تلتهمه ثلاث قطط على ضوء القمر.

وصعدت السلم وهي لا تني عن التوجع والأنين تجر أذيال الحسرة المتفتقة من خيبة الأمل وصحوة الحنين الذي خبت.

ودلفت إلى غرفتها وألقت بجسدها الثمين الممتلئ على فراشها في عنف كأنها تريد التخلص منه ، واختلط دمعها المستمر بضوء الغرفة الخافت ، فارتسمت الغرفة كلوحة تجلى فيها ببراعة مؤلمة معاني الفراق وبؤس الأمومة في وحدة تعساء.

مدت يدها إلي علبة دواء بجوارها فاضطربت ، فوقعت وتناثرت حبوبها على الأرض ، وبشيء من الصعوبة التقطت حبة ووضعتها بفمها المبلل بدمعة ، وتناولت منديل وهي تنتحب ، فعبثت بالدم في فيها وعنقها فأزالته ...

وأسندت رأسها إلى الخلف ودار برأسها ذكريات مع أبنائها يوم أن كانوا في ريعان الصبي فزاد دمعها.

واشتد ألمها إذ اتصلت بأبنائها تستوضح سر تخلفهم عنها ، فلم تظفر بعذر يهدئ حرّ فؤادها الملتاع ، وتجاهلها المضني ، فتعللت (هنا) بنزلة معوية أصابت صغيرها فانتفض قلبها وهمت بالذهاب إليها للاطمئنان عليه ، فنهتها بلطف مرتجف وأكدت أنه بخير ونادته فكلمها كي تطمئن أكثر.

وكان (سمير) مع زوجه في سهرة لطيفة بإحدى الفنادق ، وكذلك (جمال) لم يختلف كثيرا عن أخيه ، بدا ذلك من صوت العزف حولهم.

كان لهذا التجاهل ردة فعل عنيفة في نفسية الأم وخزتها بشدة ، فاهتاجت لها غريزة الأمومة المنكّرة المتجَاهَلة ، وأصابتها ببعض الخلل الذي زكاه التفرد والوحدة والصمت الذي يخيم على حياتها .

فاكتنفتها الخواطر وعبثت بها ، فهي بين تودد يقابله جحود، وعطف يقابله غلظة ، ولين يقابله نكران وجفاء.

إنها لم تنس مرة عصير الفاكهة المفضل لهنا ، ولا الطعام المشوي الذي يهواه سمير ، ولا الصنوف التي يشغف بها جمال ، فتظل ليلة كاملة منتصبة على عظامها الهشة المريضة تتراقص الخيالات الجميلة بمخيلتها الصافية وهي تري بعين الخيال سعادتهم لما صنعته من طعام ومشروبات ، وتظل تحدث نفسها: هذا عصير هنا المفضل .. أعلم أنك تفضلينه زائد السكر ، وهذه مشوياتك يا سمير سأنضجها لك في الصباح حتي تكون أشهي وأطعم وهي ساخنة ، وأنت يا جمال أعلم أنك شره لكل صنوف الطعام ، سأصنع لك هذا الطبق الممتلئ بكل ما حوته المائدة!

وتظل ليلتها حالمة تنتشي دفء قربهم وتجمعهم حولها كعصافير تلتف بشجرة فارعة ، لكن بلا نتيجة.

وأمام هذا الجحود والنكران داعب خيالها البائس فكرة غريبة دفعها إليها أن الأمومة وواجبها ثقلت على كاهل الأبناء فطرحوها في عنف وكلل ، ولم يعد لها وزن قيمي في نفوس الأبناء ، فما المانع أن نضع الأمومة في متحف أثري كالفراعنة الذين وضعوا أنفسهم في متاحف! ولتكن عبارة عن صورها وصور الأبناء في مراحل عمرهم

المختلفة، حتي يسهل على الأبناء وصل ود الأمومة بصورة لا تؤسفهم أو تنفرهم أو تثقل كواهلهم ، فتكون زيارة ونزهة معا.

فقامت على فورها إلى صندوق تنبشه بحسرة وألم مرير وهي تطالع صورها وصور أبنائها في مراحلهم العمرية المختلفة ، كانت تستوقفها كل صورة فيجري لها دمعها المكلوم.

وأخذت الصور وتركت الصندوق كما هو ، واستلقت على فراشها ومرت ليلتها البائسة وهي لا تدري أنام هذا الليل في عينيها أم غرق بسواده في دمعها السخين.

ومع أول شعاع للشمس اتجهت إلى وزارة الآثار وطالبت بمقابلة الوزير وألحت في طلبها فوصلت إلى مدير مكتبه ، وسألها عن سر الزيارة فروت له قصتها كاملة ، وأنها تريد من الدولة إنشاء (متحف للأمومة) تجسد من خلاله تاريخ الكفاح الإنساني المتمثل في صناعة المرأة للمجتمع ، هذا الكفاح الذي لم يوجه له مرة كلمة شكر أو ثناء ، بل قوبل بالتجاهل والتهرب ، فتملص منها وهتف إلى سكرتير مكتبه فدلف إليه فأمره باصطحاب السيدة إلى الخارج واعدا إياها بترتيب لقاء مع الوزير ، وأنه سيعمل جاهدا لوضع مشروع هذا المتحف في خطة الوزارة ، فقامت مغتبطة منشرحة الصدر ، فهمس إلى السكرتير ألا يدخلها مبني الوزارة من جديد وأشار بيده أن بها لوثة من جنون ، فرأت إشارته وهي تستدير لتكرر شكرها فاهتاجت وعبثت به وبمكتبه ، فصرخ فيه أن يخرجها من الوزارة ، وحضر السعاة والفراشون فحملوها عنوة وألقوا بها خارج المبني وسارت قليلا على الرصيف في الجهة المقابلة فتهاوت وسقطت مغشيا عليها ، ولم تفق إلا مع صوت المساجد معلنة فجر يوم جديد ، وبجوارها بعض أكياس الطعام وبيدها بعض النقود فألقتها من يدها وسارت إلى بيتها وأعلنته متحفا للأمومة.

*****

بائـع المناديل

ووضعوه في السيارة ولا تزال ألسنتهم تلهج بالسب واللعن لحودة وأمثاله ، وانطلقت السيارة ، ووقف الأطفال بعرض الطريق لا يبالون بكثرة التنبيهات ولا الشتائم التى اعتادوا عليها، وما كان رجال الإسعاف يحملون سوي دمعة سخينة ذرفتها الإنسانية المهدرة في جسد هذا الطفل وما يشعرون.

كان اليوم صائفا بما يكفي حتي تغلي الرؤوس كالمراجل ويتندي العرق من كل جبين، وما أشد شمس الصيف وسط النهار، وكأن هذا الوقت ما سمي بالزوال إلا لزوال الأخلاق من النفوس بفعل الحر ولزق العرق ، حيث تهدلت الشمس بأشعتها الجارحة فأرسلتها حامية كأسياخ الجحيم ، حتي ليشعر المترجل بلسعاتها أسفل قدميه في حذائه، فتدافع المارة هذا القيظ الحارق بترطيب رءوسهم برش الماء ، أو الاحتماء بالجرائد، أو التجفيف المستمر للعرق بالمناديل.

وفي إشارات المرور المزدحمة مثل التي انتهيت إليها وفي مثل هذا الطقس يكثر وبشدة بائعو المناديل من الأطفال ، لكني لم أشعر بشيء من مظاهر هذا الطقس إلا ما يؤذي العين من صنيعه بالناس ، حيث تدثرت بتكييف سيارتي آمنا على رأسي من ضربات الشمس ، ووسط هذه الملحمة الشمسية اقترب من زجاج سيارتي طفل كسير كئيب المنظر حافي القدمين ، يتصبب عرقه من جذور شعره الأسود الهائش كالسحابة الماطرة حتي حلقة فمه ، فيمسحه من فيه بطرف ثوبه المتسخ ، وتسيل أنفه بقاذورات تعافها النفس وتشفق منها ، طرق زجاج السيارة عدة طرقات حتي التفت إليه مشيرا له أن يبتعد ، فردد طرقه للزجاج فأرخيته ، فبادرني فاردا جناحه الصغير بكيس مناديل قائلا

ـــ مناديل يا بيه؟
فقلت في نفسي: إن أولي الناس بهذه المناديل في هذا الجو هو أنت أيها الشقي الصغير
فأردف بصوت لطفته طفولته:

ـــ يا بيه عايز مناديل ؟
تتردد عينه بيني وبين أصدقائه وهم يلهون في محيط نافورة الميدان بجوار إشارة المرور المزدحمة ، وكأنه يستعجلني حتي يلحق بهم ، فطال عليه صمتي فقال في غيظ:

ـــ يوووه ، يا بيه خلّص عايز واللا لأ؟

كانت نبراته الطفولية الرقيقة بنت الخمس سنوات تذكرني بصوت ابني في طفولته يوم أطلق أول كلماته ، وسرحت بفكري كيف لو شاء القدر بوضع ابني مكان هذا الطفل

رغما عن إرادتي ، بغض النظر عن أى دافع وأي ظرف جعله في الشارع، كيف ستكون معاملته من السابلة...
لم يدعني أسترسل في خاطري ، فقطع عليّ حديث نفسي بائسا وهو يسحب يده ويضع كيس المناديل في الكارتونة ، حيث تلونت الإشارة بلونها الأخضر.

ـــ حرام عليك يا بيه ، هي الإشارة فتحت، لا منك نفعتني ولا قولتلي "لأ" وشوفت غيرك.

ارتفعت أصوات التنبيهات من خلفي ، فرمقته يعبر الطريق وهو يتحاشي السيارات في ليونة ويسر حتي وصل إلى اصدقاء النافورة ، فوضع مناديله بالقرب من المياه وما إن اقترب منهم حتي رشه أحدهم ببعض الماء في وجهه ، فضحكوا جميعا منه في عبث طفولي جميل ، وبادلهم الضحكات والرشات ، فوقفت بجانب الطريق أتابعهم ، كانت تصلني نكاتهم وضحكاتهم البريئة وكلامهم الصافي من هموم الحياة على ما بهم من همّ لا يفطنوه ، وأي هم أكبر من همهم إن كانوا همْ همّ الحياة وسوءاتها ، وتابعوا بطاقة أكبر مزاحهم ولهوهم ، فتجمعوا عليه يلهون به ، ففر منهم وقفز في الماء المتسرب خارج الحوض ، فأصاب رزازه إحدى السيارات المتاخمة للرصيف بجوار النافورة ، فنزل راكبها وأمسك تلابيبه وهزه هزا عنيفا ، وانهال على وجهه لطما بشكل جنوني ، ولم يفتر لسانه من شتم الطفل وسبه بأقبح وأقذر الشتائم التي تلوث الشرف والعرض ، أرتعد الأطفال الآخرون فتواروا خلف النافورة ينظرون بعين واجفة مذعورة ، وظل الطفل يرجوه ويقبّل يد الرجل، ويستغيثه باكيا:

ـــ والله ما كان قصدي يا بيه، والله حرمت ..

فأسرعت إليه أخلصه من يده ، وقبل أن أصل إليه كان قد تركه وذهب ، وتنحي الطفل بمفرده باكيا ينتحب ، وأخذ يلملم أكياس المناديل التي دهستها قدماه أثناء محاولاته المستميتة ليخلص من يد الرجل ويضعها في الكارتونة ، وزاد من كآبته قول أحد أصدقائه وقد عادوا للهوهم.

ــ دا المعلم هيدبحك.

وقفت أمامه والتقطت آخر كيس مناديل ، فرفع بصره إلى ففزع مني ، وزحف معتمدا على يديه ورجليه ، ثم وضع يده على وجهه يتحاشاني ، وردد وإني لأسمع قلبه ينتفض خوفا وذعرا

ــ والله يا بيه ما كان قصدي دا احنا كنا بنلعب ، ورحمة امي ما هلعب هنا تاني.

فابتسمت مطمئنا ، ولوّحت بكيس المناديل:
ــ بكام دي ؟
قال بلسان يقطر خوفا:
ــ يا بيه خدها ببلاش ، بس والنبي بلاش ضرب انا وشي لسه بيوجعني.

فجلست بجواره على الرقعة الخضراء على مقربة من النافورة، وقلت مهدئا:
ــ اسمك إيه يا حبيبي؟
ــ اسمي احمد يا بيه.

كان الصوت يصل إلى أصدقائه اللاهين في النافورة ، فقال بعضهم ضاحكا
ــ متصدقهوش يا بيه ، دا اسمه حودة.

فنهرهم قائلا:
ــ بس ياض انت وهو.

فقلت مبتسما:
ــ أسمك احمد!
ــ لا يا بيه، انا اسمي حودة زي العيال دي ما قالت ، انما احمد ده بيندهوني بيه يوم العيد بس لما بنروح عند قرايبنا وانا لابس جديد.

وابتسم في سذاجة ضاربا كفا بكف وكأنه غم عليهم سرا لا يعرفه غيره وأردف قائلا:
ـــ اصلهم ما يعرفوش اني اسمي حودة.

فتنهدت في أسي ، وكأنني أتجرع حمما للطفولة المهدرة والإنسانية الغضة ناعمة الأظفار المعذبة!
ناداه أحد أصدقائه وهو ينظر إلى المناديل المتسخة محذرا:

ـــ دا أنت ليلتك مش فايته ، هترجع بالمناديل للمعلم من غير بيعه وكمان وسخه .. دا احنا هنضحك ضحك الليلادي.

أظلم وجهة لمآساته المنتظرة والمؤكدة في ليلته ، ولمصيره السئ الذي لا شك فيه ، فذهل عني كأن لم أكن بجواره ، وشرد حتي ترقرقت عينيه بالدموع ، وخارت عنقه منهكة فانحنت إلى الأرض في ذلة عميقة ، وتساقط دمعه ...

ـــ متقلقش يا حودة ، أنا هشتري منك كل المناديل.
فرفع رأسه ببطء ، وارتسمت على وجهه ابتسامة طفولية بريئة ، ولم تخل عينيه من دهشة متسائلة ، فأمسك يدي وشد عليها بكفيه الصغيرتين:

ـــ بجد يا بيه ، بتتكلم بجد واللا بتهزر؟

فأخرجت له مبلغا يفوق ثمن مناديله ، رأي أحد الأطفال البائعين يعبر الطريق قادم نحونا ، كان يفوقه بعامين أو ثلاث ، فدس النقود بين ملابسه وجلده ، حتي انتهي إلينا ووقف أمامنا ، وردد نظره بينه وبين المناديل ، لكنه لم يلحظ اتساخها لعجلته ، وقال بصوت خشنته الأرصفة:

ـــ يا نهار أبوك اسود، أنت قاعد بتتساهر وسايب الشغل ؟ البيه مش هينفعك بالليل

وتوجه بحديثه إليّ قائلا:

ـــ يا بيه لو عايز تتسلي ابقي اتفرج علينا من بعيد ، لكن متعطلناش عن شغلنا ، هو لا منكم ولا كفاية شركم!
فاستبهم عليّ مقالته ، فاستوضحت قائلا:
ـــ شر إيه يا ابني؟

أمسكت شماله بكارتونة المناديل عن يمينه ، ولوح بيمناه وغلظ صوته اكثر
ـــ آه شر، لما تعطلنا عن اكل عيشنا يبقي انت شر ، وبعدين ايه اللى مقعدك مع عيال اللي زيك شايفينهم حرامية وولاد زواني وخطر على البلد وأمن المجتمع.

لم أستطع أن استوعب دهشتي لهذا المنطق الذي يتكلم به الصبي ابن الثماني سنوات على الأكثر، ولم أستطع أن أرد ، فأردف قائلا:

ـــ متستغربش يا بيه ، اللى زيك من كتر ما شتمونا بالكلام ده عرفناه وحفظناه وفهمناه.

نظر إلى حوده قائلا بنبرة غاضبة:
ـــ قوم ياض شوف شغلك.

فرد مستكينا رافعا طرفه إليه في قلق:

ـــ أنا بعت كل المناديل للبيه .. انا كده خلصت ، هروح اودي الفلوس وهاجي العب في النافورة.
ـــ ولما البوكس يعدي وتترمي في القسم يومين تلاته مين هينفعك ، النافورة هتنفعك ، البيه هينفعك، خد كمل الكارتونة دي وعلى الله ترجع وفيها كيس مناديل واحد انت فاهم.

ورمي له بالكارتونة بين رجليه ، وساق الآخرين من محيط النافورة وعبروا الطريق، كان الماء يتساقط من ملابسهم المهملة الرثة على الأسفلت ، ويرسم أقدامهم الصغيرة

المبتلة ، حتي اختفوا في إحدي الشوارع الجانبية ، كانت الإشارة قد ازدحمت بعدما أضاء لونها الاحمر ، فوقف حودة هامّا بالإنصراف ، فاستوقفته متسائلا
ـــ لما بتروحوا القسم بيعملوا معاكم إيه؟

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة
ـــ يا بيه هو احنا بنروح بمزاجنا!

وتنهد في أسي وأردف قائلا:
ـــ بيضربونا ويشتمونا ويمشونا.

ونزل إلي الشارع يعرض مناديله على السيارات ، ومضيت إلى سيارتي ثقيل القدمين أدفعهما بصعوبة شديدة لا أدري لماذا ، وأدرت السيارة ، ونظرت إليه فرأيته يفرد ذراعه بكيس مناديل على أحد السيارات ويلحّ عليه ، فنهره قائدها ودفعه بكفه في وجهه ، حتي تراجع بضع خطوات حتي كاد أن يقع على ظهره ، لكنه تماسك مستندا على قدمه التي أخرها كرد فعل ، فعاد يعرضها عليه فسبّه الرجل بأمه سبا مؤسفا يعرّض بأمه وبشرفها ، فترقرق الدمع في عينه ، ورفع حمالة (الفانلة) التي انحسرت على مرفقه ، فأتبعه الرجل بشتائم متوالية كالسيل ، حتي يبتعد ، فردّها عليه حودة بصوت تملكه الوهن وتندي بالألم ..

كانت الإشارة قد أضاءت بلونها الأخضر ، فتحركت السيارات تحث الطريق على الإسراع ، وتدافعت إلى الأمام حتي تدرك السير في الطريق الخالي أمامها قبل أن يزدحم ، خرج الرجل يعدو خلف حودة الذي فر من أمامه مسرعا بعدما رد عليه سبابه وأهانته ، حتي لا يناله أذي أو لطم كالذي حدث منذ قليل ، فصدمته سيارة قبل أن تدرك قدميه الرصيف ، فألقته على بعد امتار لخفة جسده النحيل ، فتطايرت أكياس المناديل في الهواء وسقطت عليه وتناثرت حوله ، واختلط بعضها بدمه المنهمر على الأسفلت ، وسقط المبلغ النقدي بجواره ، وتجمع حوله أصدقائه بعدما أحضروا مناديل أخري ليواصلوا عملهم قبل المغيب ، فامتلأ المكان بصراخهم الطفولي وعويلهم، وتساقط على جسده دموعهم المنهمرة ، وبطريقة طفولية ساذجة أفرغوا عدة أكياس

من المناديل ينشفون بها الدم لعلها تضمده او تشفيه ، وزادت الحلقة حوله بالمارة وبعض أصحاب السيارات ، وركاب عربات الأجرة.
أما من عدا خلفه وصدمه فقد فرّ دون تفكير أو روية.

وصلت إليه مسرعا ، فرأيت رجلا يجلس القرفصاء بجواره كان ممسكا بيده ، ثم تركها فهوت على الأرض ، فغطت كفه الصغيرة المبلغ النقدي الذي أعطيته له ، وقد انزلق من ملابسه بفعل الصدمة ، ، ثم نهض الرجل معتمدا على ركبتيه ويديه قائلا:

ــ الله يرحمه ويصبر أهله.

نظرت إلي عينيه بحزن يفتت الكبد قبل أن يسبلا لآخر مرة على الدنيا وقد انتهي تاريخه الصغير فيها في هذه اللحظة ، وانتهت الحياة وما فيها من إهانات وسب ولطم وثياب رثة ممزقة ..

كانت عيناه لا تزالان مغرورقتين ، ترتسم فيهما لمعة من الدمع مجهولة السبب، لا أدري: ألفرحة شرائي مناديله وإنقاذه من بطش المعلم ؟!، أم حزنا وبؤسا لبطش الرجلين به؟! ، ومن العجيب أن ارتسمت على شفتيه بعد الوداع ابتسامة طفولية رقراقة كطفل بين أحضان أمه وأبيه أيضا مجهولة السبب لم أستطع أن أفسرها ، لكنها دون عبقرية وطول تفكير ، أدركت السخرية فيها .

ونفذت بنظري مقتحما عينيه لأرى ما أسدلت عليه من واقعه البائس المنكود الذي دفعه إلى هذه الحال ، فرأيت شيئا يزيد كشفا لسوءاتنا المفضوحة.

انحنيت عليه ومررت يدي في ضعف مرير أسبل عينيه ، وما رفعتها إلا وقائل يقول
ــ هو مفيش اسبوع يعدي الا اما عيل من ولاد الحرام دول يموت ويزفر الاسفلت بدمه النجس!
وانصرف الناس بعدما وضعناه جانبا على الرصيف ، ومضت السيارات تشق طريقها كأن لم يكن شيء ، ورجعت إلي الطريق روحها الطبيعية من صخب وضجيج ، ولم يبق

حوله غيري وأصدقاء المناديل ، يجلسون حوله ذاهلين لا يرتد إليهم طرفهم جهلا بما حل بصديقهم ، وجهلا بمصيره ، فتقاربوا والتحموا ببعضهم كالقطط إذا تملكها الذعر والخوف ، وساد صمت بيننا خيم على نفوسنا ، ولم نشعر بضجيج الحياة وصخبها حولنا ، اقترب منه أصغر أصدقائه سنًّا وقال محذرا ، وكأنه لم يفهم كلمة الموت التي رسمتها الدماء حول صديقه:

ـــ يا حودة قوم ، كفايا نوم أحسن المعلم يضربك لو ما بعتش المناديل!

حضرت سيارة الإسعاف ، وحمله رجالها على نقالة ، فتخضب فراشها الأبيض بدمه ، وشف عنها فتساقط بعضه على الأرض ، أخذ يتمتم حاملوه ـ متأففين ـ بعبارات اللعن والسب لأطفال الشوارع وأهليهم ، وتراصت الأطفال بالقرب من النافورة منكسي رءوسهم خوفا من رجال الإسعاف ، وتسائل أحدهم ببلاهة الأطفال قائلا:

ـــ هو حودة راجع تاني ؟

ووضعوه في السيارة ولا تزال ألسنتهم تلهج بالسب واللعن لحودة وأمثاله ، وانطلقت السيارة ، ووقف الأطفال بعرض الطريق لا يبالون بكثرة التنبيهات ولا الشتائم التى اعتادوا عليها ..

وما كان رجال الإسعاف يحملون سوى دمعة سخينة ذرفتها الإنسانية المهدرة في جسد هذا الطفل وما يشعرون.

*****

نيللي

هو شعور لبعض الوقت وحاجة يلبيها الرجل لنفسه، كالمرأة إذا مر زمن ولم تسمع لخليلها غزل ولا تشبيب في حسنها وفتنتها، تُقدّم على استفزازه فتتخلق وتبتذل.

مرت الليلة هادئة على غير العادة دون سبب ، كما مرت الليالي قبلها ساخنة مشتعلة بينهما بلا سبب كذلك ، وفي الصباح وقبل ذهابه إلى عمله أرادت سبر هذه الليلة لتتلمس السبب ، فما باتت ليلتها بجواره إلا مفتّحة العينين شاردة الذهن مفكرة ، يشغلها هذا الهدوء الغير معهود علي ليلتهما، أكانت عن تغيير في سلوكه أم أنها نسمة صيف لا تفتأ تمر إلا ويتجدد قيظه .

أدرات النظر في وجهه وهو يتناول طعامه وكأنها تبحث عن السر في وجهه ، فرمقها بنظرة فاتره ، فتظاهرت بالانهماك في تناولها لطعامها ..

ترددت قليلا ثم قالت:
ـــ أتمانع لو ذهبنا إلى والديْ بالإسكندرية الأسبوع المقبل.

فاحمّر وجهه وقال مغضبا تاركا طعامه:
ـــ لا ننتهي من حديث السفر ووالديك.
ـــ ولكن مر عام كامل ولم أرهما ولا أدري سر هذا الرفض مع أنهما كثيري السؤال عنك والاطمئنان عليك ويكنان لك كل محبة وود وكأنك ابنهما.

ـــ فليعتبراني ابن عاق ، ولن أذهب ولن تذهبي.

وقام إلى سترته فارتداها وأشعل سيجارة واتجه إلى الشرفة ينظر من خلف الزجاج إلى الطريق .. شعرت بالأسي ، وعلت وجهها كآبة ، وساد الوجوم أرجاء المكان ، دق هاتفه فنظر فيه فلم يشأ أن يجيب ، وتابع تدخين سيجارته في صمت ، جاشت بنفسها العديد من المشاعر المؤلمة كالأسئلة مجهولة الحل ، وكأنها تعيش لغز إنساني لا تهتدي إلى قفله العتيق ، كانت ساكنة تنظر بعين دامعة تائهة إلى أطباق المائدة لكنها وقفت وخرجت عن مقعدها وتمالكت نفسها بشيء من التكلف وسألته فيما يشبه الاستغاثة:

ـــ أهناك غيري في حياتك؟

استدار ببطء لهول السؤال على مسامعه ، فأعادته وهي تستند بكفها على إحدى المقاعد:
ـــ هل هناك غيري في حياتك ؟ أرجوك أجبني بكل صدق.

أقترب منها في حنو ولطف وأمسك بمرفقيها ، ولا تزال سيجارته بيده يتصاعد دخانها على وجهها كسحابة تعترض وجه القمر.
ـــ بالطبع لا ، ما ثمّ غيرك ، كيف تسألين هذا السؤال!
ـــ هذا التغيير في سلوكك لا يمكن أن تكون أسبابه تلك التوافه اليومية حتي تنغص علينا عيشنا كل يوم وتحيل البيت إلى دار نكد و تعاسة .. فما السبب ؟

ترك مرفقيها وفرق وجهه بيده اليمني في حنق وغيظ ، ثم كورها وضرب الحائط بقبضته ثم التفت إليها قائلا وقد اشتد غضبه واستعر:
ـــ اسمعي تريدين معرفة السبب ، أنت السبب.
ـــ كيف ؟ أخبرني بخطأي حتي أحسن التصرف.

أشار إليها بسبابته وهو يطفئ سيجارته:
ـــ عليك أن تعرفي خطأك وتصلحيه فإن لم تجدي خطأ بداخلك فتلك مشكلة أكبر ربما نعجز عن حلها.

أُرهقت نفسها لطريقة كلامه ، وثقل قلبها لهذه التهم ، ودمعت عيناها وخرج صوتها مبللا بدمعها:
ـــ ولكن يجب أن تتكلم ، ولا تتدعني فريسة الظنون.

ولّاها ظهره وفتح الباب وبنفس غضبه التفت نحوها قائلا:
ـــ كفاك ضغطا ونكد ، لن أعود الليلة فما عدت أحتملك اليوم.

وخرج وأغلق الباب خلفه بعنف ، وارتمت على المقعد المجاور كأن جسمها عبء عليها فألقته ، وانفجرت عيناها بالبكاء وسرح بها الفكر وتكلفت الأسباب لكنها لم

تجد منها سببا يحيل الحياة إلى هذا الجحيم المستشري في علاقتهما ويدفعه أن يهجرها خارج البيت ، كفكفت دمعها بيدها لكن عيناها لا تزالان يعتصرهما الدمع ..
خيم عليها السكون وظلت جامدة هامدة كتمثال منصوب، مسددة البصر في الفراغ لا تلتقي أهدابها ، قطع عليها هذا الهدوء ضيف يطرق بابها ، ظل بضع دقائق حتي انتبهت ، وفتحت الباب ، كانت البسمة على وجه رحاب مترعة مشرقة ، لكنها ما لبثت أن همد ابتسامها على مرافئ شفتيها فأيقنت أن هناك أمرا ما ، فدخلت تتبع آية وجلستا .

ــ ماذا حدث ؟
لكنها سكتت ، وعاد نظرها يعبث في الفراغ ، فوضعت رحاب يدها على رأسها متلطفة وأعادت سؤالها ، فقالت:
ــ بل ماذا لم يحدث؟ ، كل شيء حدث ، لطالما أخبرتك ، غضب مستمر ، صوت مرتفع ، همز ولمز ، تقليل مني ومن شخصيتي ، كل شيء وأبسط حقوقي كإنسانة لها حق معرفة الأسباب لا أجدها.

وأتبعت حديثها بابتسامة ساخرة باهتة لم تنفرج لها شفتاها ، فربتت رحاب ظهرها وقالت:
ــ إهدأي .. لا بد من طريقة ما تروضه وتصلح مابينكما.
ــ أعياني هذا الأمر ، ولا أدري أين الحكمة فيه؟ ولا كيف الولوج إلى عقله والنفاذ إلى قناعاته فأقنعه أن الحياة تنفرط منا وهو لا يشعر.
ــ عقول الرجال كالصخور الصلدة ، ولكنها أيسر من الماء بيد الصبي ، فما بالك بامرأة في جمالك وحسنك .
ــ ماذا أفعل؟ وأنا لا أعرف سببا واحدا لكل ما يحدث.
ــ دعيه مستمتعا بشعوره الذكوري القاهر المتسلط بعض الوقت.

هزّت رأسها منصتة ، فتابعت رحاب حديثها:

ـــ اطمئني .. سيكون لك ما تريدين ، ولكن كما قلت هو شعور لبعض الوقت وحاجة يلبيها الرجل لنفسه ، كالمرأة إذا مر عليها زمن ولم تسمع لخليلها غزل ولا تشبيب في حسنها وفتنتها تقدم على استفزازه فتتخلق وتبتذل.

ابتسمت آية وكأن كلامها أثلج صدرها بعض الشيء ... ثم أردفت قائلة
ـــ عليك أن تطيعي هذه الطبيعة النافرة بعض الوقت لتسلمي ويكن لك ما تريدين.

شرد بصرها وسرحت وكأنها تستحضر أمرا في ذهنها فقتم وجهها أكثر ثم قالت وهي بهذه الحال
ـــ أول أمس هيأت البيت ونظمته وزرعت فيه من روحي بهجة ونشوة ، فأخبرته في عمله إنني بانتظاره ، وهيأت له حالة زوجية فريدة حتي أكسر شوكته لو كان بنفسه شيئا ، وأقبلت مع الليل أسرج شموعي المعطرة ، وأدّهن برحيقي وأتزين بألواني وأبتذل كفتاة ليل أو أكثر ، وأبديت مفاتني ، حتي كنت كزهرة مزروعة ببستان فوق السحاب تتلألأ ، ونثرت العبير في أرجاء البيت، فلو كانت الجنة متجسدة في خيال رجل في بيت وامرأة ..

توقفت فجأة وانفجر دمعها ، حاولت رحاب تهدئتها لكنها لم تفلح فضمتها إلى صدرها وأردفت آية قائلة ولا يكاد يفهم من كلامها شيء لغلبة دموعها.

ـــ لكنت أنا وهذا البيت .. فتأخر عن ميعاده المعتاد ، وغلبني النوم فنمت ، ولم أفق إلا وقد قضت الشموع نحبها ، فتيقظت على صوت الباب يفتح وأنا بين ظلمة لا أراه ، فأضاءت الأنوار ، فدخل مترنحا في سكره ..

ضمتها أكثر وقبلت رأسها وأقسمت عليها أن تسكت ، واستمرت آية في البكاء لبعض الوقت حتي هدأت قليلا ، حاولت رحاب تلطيف الأفق فقالت:

ـــ تعلمين أنني صديقتكما من أيام الجامعة ، وأن بيني وبينه بعض الود ، فاسمحي لي ألا أرحل حتي يحضر وأكلمه بهذا الشأن وأرجو أن يجعل الله بعض الخير على يدي ..

وسكتا ، وطال بينهما السكوت ، فأخذت رحاب تتحدث بكلام فارغ يملأ هذا الفراغ ، وعاد السكوت من جديد فتلمحت وجه آية فوجدته ينفرج بعض الشئ فاصطنعت ابتسامة وقالت:

ـــ ما رأيك أن نشرب سويا خلطة الفواكه التي كنا نحتسيها في الجامعة .. أتذكرين طعمها؟

قالت بابتسامة مغتصبة:
ـــ نعم .. لم يكن لها طعم.

ضحكت رحاب مسترجعة تلك الذكريات:
ـــ لا أدري كيف كنا نستسيغها.
ـــ كانت أغلب الوقت عنادا في النادل الذي يصنعها.
ـ نعم ، كنا نجبره على كشط البرتقال والبطيخ والأناناس ، فكثرما فسد جهاز الخلاط وتحمل ثمنه، لأن خلطتنا ليست في قائمة المشروبات، لكنه كان يفعلها لأنه معجب بك.

تنهدت كأن لم يمض على هذه الأوقات ثماني سنين وكأنها راجعة لتوها من الجامعة
ـــ أيااام.

كان حديث الجامعة قد بسط نفسها بعض الشيء ، ولينت أحاديثها عنها بعضا من أعصابها ، وأخذت روحها تنفتح ، ودار برأسها تلك الأيام الزاهية التي كانت تعبث بالحياة في سعادة ونشوة لا تنقطع كفراشة بأحضان الربيع ..

دق هاتفها ، فتناولته رحاب ونظرت فيه ثم مدت به يدها إليها:
ـــ إنه هو.

فقالت مداعبة:

ـــ من؟ النادل ؟

ضحكت رحاب قائلة:
ـــ لا، زوجك .. النادل تزوجته أنا بعد عام من زواجك كما تعلمين.

فابتسمت وتناولت الهاتف ، كان صوته مختلطا لا تكاد تفهم منه جملة مستقيمة المعني لسكره ، فوجمت واربد وجهها ، لاحظت رحاب عليها هذا التغير فأشارت إليها بيدها من بعيد أن تهدأ لكنها لم تستمع ، وقالت محتدة:

ـــ ماذا تريد ... (غيرت لهجتها فجأة وتابعت بصوت ناعم هادئ متكسر خليع) نعم أنا نيللي .. بالطبع سنفعل ذلك وأكثر .. أين ؟ .. لقد نسيت ..

اندهشت رحاب لحوارها ووقفت بجوارها جامدة لا تفهم شيئا، أشارت إليها أن تحضر الورقة والقلم فاحضرتهما فأخذت تكتب عنوانا ثم قالت:
ـــ ساعة على الأكثر وسأحضر.
ـــ من كان هذا؟ ، ومن نيللي؟ وأين ستذهبين؟

لكنها لم ترد ، وارتجف وجهها ، وأخذت تفرق يدها بعنف ، وتعالي صوت زفيرها المحترق ، وكورت يداها ثم أطلقتهما ، فعبثت بها في شعرها المرسل ، ثم لطمت جهها حتي علتها حمرة قاتمة فبدا كشمس ساقطة خلق تيجان النخيل ، فقامت ودخلت غرفتها مسرعة وأغلقت الباب ، فتبعتها رحاب تتسائل وتطرق الباب طرقات سريعة متوالية:
ـــ ماذا حدث .. افتحي!

فقالت من الداخل بصوت غاضب:
ـــ أنا بخير يا رحاب اطمئني سأبدل ملابسي لنخرج.
لم تستطع رحاب أن تفهم شيئا أو أن تتوقع أي شيء فرجعت الى الورقة وقرأت العنوان المكتوب فزادها حيرة ودهشة ، وتناولت هاتف آية تراجع الرقم وتطابقه مع

رقم زوجها في هاتفها فتأكدت أن زوجها المتصل فزادت حيرتها ..
خرجت آية من غرفتها فدهشت لها رحاب أيما دهشة لما ترتدي ، كانت صارخة في ابتذالها الأنثوي والتبجح بمفاتنها .. كللت رأسها (بباروكة حمراء) وارتدت فستانا عاري الصدر والساقين والفخذين ، يبدو صدرها منه كثمرتين ناضجتين عظيمتين يكاد فستانها أن يمزّق منهما مع قوام ممشوق أهيف وخصر نحيل ، وبرزت أردافها الممتلئة خلال الفستان الضيق في جمال أنثوي صارخ جذاب ، واحمر وجهها أكثر بطلاء الشفاه ، وتلونت جفونها وتهدلت أشفارها كورق الإقحوان ...

أقتربت منها رحاب ووقفت أمامها
ـــ ما هذا وإلي أين ، أنا لا أفهم شيئا .. كيف تعتزمين الخروج هكذا .. لو رآك زوجك بهذه الحال فلن تحمد الأمور.

فابتسمت ساخرة:
ـــ زوجي ؟
فدهشت لمقالها وقالت:
ـــ آية ... اخبريني بما يحدث ، أنا لا أفهم شيئا.

جمدت الدمعة في عينها ولمعت، وقالت في وجوم ولا تكاد شفتاها تنفرج
ـــ إنه يخونني.
ـــ يخونك ! كيف عرفت ؟
ـــ من حمقه اتصل بي خطأ وظنني ساقطة ممن يعرف ، ومن سكره لم ينتبه بمن يتصل ، لطالما سألته من نيللي هذه التي تتصل به فجرا فكان يراوغني وأقتنع.
ـــ ربما يكون محقا ، فقد تكون صديقة عمل أو ما شابه لا أكثر.
ـــ صديقة عمل يحدثها سكرانا ويدعوها لشقة تعرفها ويمنيها بكلام فاحش بذيء لا يخرج إلا بين زوجين على فراش ساخن في ليلة سافرة متبجحة.

جمدت رحاب ولم تنبس بكلمة فأردفت آية حديثها:
ـــ هيا!

ـــ إلي أين ؟
ـــ إلي حيث يجب أن تكون نيللي الآن!

نظرت رحاب إلى ساعة الحائط والتي أشارت عقاربها إلى الحادية عشرة والنصف فقالت:
ـــ ولكن الطريق الآن غير مأمونة ، ونحن امرأتان ضعيفتان ، وبملابسك هذه فهو أقل أمانا وأكثر عثرة ، وشباب الليل لن يدعونا وشأننا.

ثم دخلت رحاب إلى غرفة نومها وأخرجت منه (بالطو) أسود طويل به غطاء للرأس وفردته لها وقالت:
ـــ لأجلي ارتدي هذا.

فارتدته وخرجتا إلي الشارع يبدو فخذها الأبيض من فتحة (البالطو) ويتهدل شعرها الأحمر على جبينها من أسفل غطاء الرأس ، فلاحظت جحوظ العيون وسيلان اللعاب في المارة والشباب ـكانت سيارتها مكشوفة بلا سقف ـ فخلعت عنها (البالطو) ودلفت إلى السيارة تقودها وانطلقت، أنكرت عليها رحاب صنيعها لكنها لم تستمع ، وأسرعت السيارة أكثر فداعب الهواء شعرها فتراقص من شدته وانكشف صدرها أكثر مما كان عليه ، وسار بجوارها شاب يعرض عليها ليلة، وداعبها بكلام بذيء كالذي سمعته منذ قليل من زوجها فتخيلته مكان هذا الشاب وهو يتسكع في الطرقات يخونها وهي قابعة في البيت ترعاه وتحافظ عليه ، لكنها ردّت على الشاب بلطف ولم تعنفه وانطلقت مسرعة وتركته خلفها ، نهرتها رحاب علي ما تفعل وأنكرت ما تصنع، فقالت لها وقد هدأت من سرعة السيارة:
ـــ ما أسهل الخيانة على الأنثي لو يفهم الرجل!

قالت في رقة ترفها الشفقة:
ـــ حبيبتي أعرف ما أوعز به هذا الشاب في نفسك ولكن ..

قطع عليها حديثها رنين هاتف آية

ـــ صمتا ، إنه هو .. نعم يا حبيبي .. لا تغضب أنا في طريقي إليك.

واتجهت بحيثها إلى رحاب ضاحكة في أسي:
ـــ زوجي لا يصبر .. يريد نيللي حالا ، لأنه ملّ الانتظار!

وزادت من سرعتها حتي بلغت جهدها ، ووصلت إلى الشقة وطرقت الباب تحمل البالطو علي ذراعها ، فتح لها شاب في الثلاثينيات من عمره لا يكاد يفتح عينيه لثقلهما من السكر فدخلتا ، فقام آخر نحوهما وتساءل عن التأخير ولم يختلف عن سكر صديقه في شيء ، وحاول أن يلف زراعيه حول خصرها لكن رحاب بادرته بلكمة في معدته فأردته أرضا وهو يسعل بشدة ويتوعك من الألم ، فسألت الأول عنه فرد بلسان كبّله السكر:

ـــ بالداخل .. مالك تسألين عنه وحده ، لأنه من سيدفع لك أجر ليلتك؟

واقترب منها أكثر لكن رحاب دفعته في صدره فتماسك ولم يقع فقال:
ـــ المرة القادمة أنا من سيطلبك ، فأنت أجمل امرأة تدخل هذا المكان ، ونحن كما ترين ليلتنا كل له عمله ، أنا عليّ (وأشار بالكأس في يده) الخمر ، هذا عليه المخدرات ، وهذا عليه أنت.

تزامن ذلك مع خروجه من الغرفة يرتدي (برنس) وهو لا يختلف في سكره عن صاحبيه ، تناولت آية الماء المثلج وأفرغته علي رأسه ففزع لها وهم بلطمها لكنها هي من لطمته فأيقظته من غفوته الخمرية ، فقال مشدوها متجمدا
ـــ آية؟

قالت في أسي وهي تلوح يدها في أرجاء الشقة:
ـــ أهذا هو السبب؟

قام من الأرض ووقف بجوار صاحبه ينظران إليها وقد فاقا من سكرهما يحاولان فهم شيء ، فنظر إليهما فرأي عيونهما مسددة تجاه زوجته بحدة ، فأخذ (البلطو) من ذراعها قائلا:
ـــ استتري.

فنزعته من يده وألقته أرضا وقالت في تصميم:
ـــ طلقني!

دوت الكلمة في أذنيه حتي أصمّته فتساءل في دهشة:
ـــ ماذا؟
ـــ طلقني!
ـــ كيف؟ أنا أحبك، ألا تسامحين!
ـــ لا .. لو كنت فعلتها أنا كنت قتلتني ، ولكني لن أقتلك بل أريد أن أفارقك.

طرق الباب ففتحه أحد الشابين ، فإذا بامرأة شابة مبتذلة ، يبدو أنها نيللي ، نظرت إليها آية في سخرية ثم نظرت إليه فتصاغر بصره إلى الأرض ..

ـــ طلقني وإلا استدعيت شرطة الآداب وكلنا متلبسون.

وأغلقت الباب وأمسكت بهاتفها .. فطلقها ...

وخرجت تتبعها رحاب بعدما التقطت (البالطو) من الأرض ، وركبا السيارة ، وسارا قليلا ، ووقفت:
ـــ لا عليك ، الحمد لله الذي أراحك منه ، المهم الآن أن تنتبهي لوضعك الاجتماعي الجديد بأنك مطلقة ، وكما تعلمين أن المطلقة في هذا المجتمع توضع دائما بين قوسين.
ـــ أعلم ذلك جيدا.
ـــ لا ينبغي أن أراك بهذا الثوب ثانية ، فهذه ليست أخلاقك.

ــ حسنا يا رحاب لا تجهدي نفسك في نصحي بالأخلاق لهذا الثوب وبأنني مطلقة ، فمعاصم أخلاقي لا تنكسر مهما كان.

أدارت السيارة ، فابتسمت رحاب عن رضا لمقالها وقالت:
ــ إلى أين ؟
ــ إلى الأسكندرية ..

*****

ُ

كنت حبيبي

كانت زينتها قد تناثرت بأطراف وجهها لهذا السيل المتفجر من ينابيع عينيها ، وسال الكحل من جفونها فترمدت وجناتها ، وانجرف الدمع إلي شفتيها الناعمتان فابتلا واتقدا احمرارا ، وزاد الدمع كأن عينيها مثقلة بسحاب متراكم ، وانتحبت ، وسمع لها أزيزا ، ولا تزال ممسكة بوردتها المبتلة أيضا ، فرمتها من النافذة فوقعت في جدول صغير ، فجرفتها مياهه الآسنة ...

مضي هزيع من الليل فأينعت الكواكب وأزهرت ، وانفرجت السماء عن ابتسامة بدا خلال ثغرها النجوم وكأنها حبات لؤلؤية في فم حوراء مصفوفة منظومة في دقة وجمال.

وعلا القمر كاملا مستديرا كشامة في خد حسناء ، وهبت ريح طيبة هادئة لطيفة، داعبت أهدابها في رقة وليونة وأشرقت عينيها بالنظر إلى القمر ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة وهي تداعب خدها الناعم بوردة حمراء يانعة ...

ومضي بعض الوقت وهي تداعب القمر بنظرة حانية فاتنة أخجلته ، وتسرح بمخيلتها صورته ، ويمرح طيفه برأسها وقلبها ، فبدت عليها نشوة وسعادة ، ثم تنهدت ووضعت يدها الجميلة على صدرها وكأنها ترده إلى موضعه ، وأمسكت بهاتفها، لحظات وتواصلت معه ...
ـــ حبيبي أنتظرك الآن في شرفتي ...

لكنها لم تسمع ردا، غير همهمات مختلطة لنساء ورجال مع ضحكات خافتة لا تميز نوعها ، فخبتت ابتسامتها المترعة قليلا ، ثم أردفت قائلة:
ـــ أتسمعني؟

فرد عليها في اهتمام مصطنع شعرت به في ثنايا صوته
ـــ نعم حبيبتي أسمعك.
ـــ أين أنت .. ولما تأخرت ؟

كانت ردوده متقطعة باردة ، لم يستطع بحرارة أحاديثه المفتعلة أن يوصل إليها شعورا يغتصبه من نفسه وقلبه على مضض ، تأكدت شكوكها الإنثوية التي بدأت منذ أسابيع بأنه تغير عليها ، ولم تعد عاطفته كما هي إذ سمعت ضحكة أنثوية ـ استطاعت أن تميزها بدقة ـ تشق طريقها إلي إذنها مع صوته الرخيم المصطنع ...

فقالت بصوت نضده حزن كئيب:
ـــ من هذه ؟

فتخابث قائلا:
ــ من؟

فاهتاجت لمحاولات كذبه الفاشلة ، وغضبت عليه كلماتها البائسة
ــ هذه الضاحكة بجوارك ، من هي؟

فقال مؤكدا:
ــ ما ثمّ أحد معي.

وأراد أن يحول مجرى العاصفة من دفاع هش إلي هجوم كاسح كاسر فقال
ــ كفاك غيرة مفسدة لكل جميل بيننا ، نصحتك مرارا ولكنك لا تفتأي تحطمي زهو حبنا.

فقالت وقد سبح وجهها في دمعه السخين:
ــ كفاك كذبا فما عدت أحتمل ، لا أدري من أي أحجار الدنيا صنع قلبك، ومن أي ماء خادع مزجت وشائجه، كم أخبرني المقربون بأنك لا تخلو من هوي وكم واجهتك فكنت تقر ، ثم تحدثني بلهجة مدربة على النفاق والخداع أنني ملكة قلبك وسيدة حياتك ، ويال حمق قلبي كيف صدقتك وأمعنت في حبك ..

ــ حبيبتي كيف أثبت لك صدق ما تكذبيني فيه ، ولماذا سكنت بالقرب منك إن لم أكن أحبك ، وتعلمين أنك حب عمري كله.
ــ أيها المسكين ، ارفق بنفسك ولا تتكلف الأعذار ، انظر إلى كلماتك كيف خرجت شوهاء خابتة سخيفة الحس باردة الشعور.. أنا الآن ابتسم ساخرة من نفسي ووهمي الخادع فيك ، وألعن هذا الشعور الذي هيجته خيالاتي ورقة قلبي ...

قطع عليها حديثها أكثر من صوت ضاحك لنسوة حوله فأردفت تقول:

ـــ ما أعظم الفرق بين ضحكتين ، ولكني أكبر عجبا كيف يتسع قلبك بعد حبي للتسكع في دروب النساء وأحضانهن ، وكيف تتوسد قلبي وتري في غيره راحة ولو كانت مؤقتة أو لو كانت لهوا وعبثا.

هدأت الأصوات بجواره ، يبدو أنه ابتعد عن جلسائه وخلا بها:
ـــ حبيبتي .. حبيبتي .. هل تسمعين .. هل أنت معي ؟

فقالت بعدم اكتراث ...
ـــ لم أعد حبيبتك.

وأنهت فجأة حديثها معه ، وألقت هاتفها أرضا بعنف فحطمته ، كانت زينتها قد تناثرت بأطراف وجهها لهذا السيل المتفجر من ينابيع عينيها ، وسال الكحل من جفونها فترمدت وجناتها ، وانجرف الدمع إلي شفتيها الناعمتين فابتلا واتقدا احمرارا، وزاد الدمع كأن عينيها مثقلة بسحاب متراكم ، وانتحبت ، وسُمع لقلبها أزيز ، ولا تزال ممسكة بوردتها المبتلة ، فرمتها من النافذة فوقعت في جدول صغير ، فجرفتها مياهه الآسنة ...

*****

الملكة والقمر

وفي ذلك اليوم وهم يتنعمون بهذا الجمال الفريد بزغ القمر من خلف السحاب المتراكم الذي يفصل بين السماء والأرض، فتحولت الأنظار إليه في دهشة وإعجاب لهذا النور الساطع حديث العهد بسمائهم الملبدة دائما بالغيوم فلا قمر قبله ولا نجوم ولا أي شيء.

كان في بعض أزمنة الدنيا التي خلت ، المجهولة التاريخ والتوقيت ملكة تعيش في الأرض ، يوم أن كانت الأرض خالية من الإنس إلا قليلا ، وكانت هذه الملكة بارعة الجمال رائعة الحسن فريدة التكوين الأنثوي ، كأنها منحدرة من ملوك الجنان ، لا يدانيها في جمالها أنثي على الإطلاق ، ولا شيء في الطبيعة ، وكأن ثيابها تشف عن جسم مشع بداخلها فلا يراها أحد إلا حسبها كوكب دري مضيء.

وكان تفردها بالجمال والحسن المطلق هو سر وجودها شابة حسناء فاتنة ، فتستمد من هذا التفرد مادة حياتها.

وكان من أسرار نضارتها أنها تستمدها من حسرة قلوب الرجال وطمعهم فيها وغيرة النساء أن يبلغوها ، فكانت بعد كل لقاء بينها وبين الناس تزداد نضارة وبهاء وحسنا وزينة.
ولم تكن تدع امرأة ذات حسن إلا راودتها على حسنها فاستلبته منها ببعض السحر ، فكانت كمصب النهر الذي يتجمع فيه جمال الوجود وزينته.

ومن عجائب هذه الملكة أن كان لها أمنية واحدة تتحقق كيفما تريد ووقتما شاءت ، بما لا يخالف النظام الكوني لطبيعة الوجود كيفما كان الوجود في وقتها قبل تطوره في صورته الحالية.

وذات يوم اجتمع عندها أهل الأرض ينظرون إليها ـ كعادة اعتادوها منها مرة كل شهر ـ لتفيض من جمالها الرائق في أرواحهم ، ولتشرق في نفوسهم بمادة الجمال المطلق المكنون في وجهها وشفتيها.
وفي ذلك اليوم وهم يتنعمون بهذا الجمال الفريد بزغ القمر من خلف السحاب المتراكم الذي يفصل بين السماء والأرض ، فتحولت الأنظار إليه في دهشة وإعجاب لهذا النور الساطع حديث العهد بسمائهم الملبدة دائما بالغيوم فلا قمر قبله ولا نجوم ولا أي شيء ، وأخذوا ينظرون إليه في دهشة وإعجاب وذهول فراعها ذلك ، فتبسطت إليهم ببعض نغماتها المتكسرة المتهدجة الحانية الشجية ، لكن أحدا لم يلتفت،

فقد كان سهم القمر قد نفذ إلى القلوب وخالط مشاعرهم بنوره وصفائه ووداعته، فاستعرت نفسها غضبا ، واستشاطت غيظا ...

وخلت بنفسها مفكرة .. ما هذا ؟ ومن أين أتي ليشق عصا على جمالها مجتمعة؟ وماذا تفعل وقد زاحمها القمر في مكانتها الشاعرية في القلوب؟

وظلت شاردة ليلتها ، حتي شعرت بالوهن يدب في مفاصها وأوصالها ، وبهتت بعض وضاءتها فارتاعت ، ومر يوم بعد يوم ، فازداد جمال القمر واتقد تقديسه في الأرواح والنفوس ، وذاع خبر القمر بين الناس ، وتناقلوا نبأه ، فغلبها الوهن ، وأخذوا ينتظرون طلته البديعة الجميلة وسطوعه الأخاذ الذي يتكرر مرة كل عشرة أيام ، ويتغنون ببهائه وجماله وينظمون فيه الشعر والمقامات.

فتأثرت الملكة أيما تأثر ، وشعرت بالخريف يدب في ربيع جمالها ، والظلمة تزحف في جسدها من أطراف رجليها ، لكن وجهها كما هو ينبض بالجمال والحسن ، لكنه جمال في طريقه إلى الاضمحلال والأفول.
أضني القمر تفكيرها ، فأسهرها الليل وأضجها بالنهار ...
ماذا تفعل ؟ وكيف يتركها هؤلاء الجاحدون؟ ألأنها كانت تنعم عليهم بالنظر لها مرة كل شهر والقمر يشرق عليهم كل عشرة أيام؟ أم لأن القمر حديث العهد بهم وهذا شأن كل جديد ؟ ولكن ليست هذه بأسباب ، و ليست الآن بصدد البحث عن أسباب ، كيف تحل هذه المشكلة المفجعة ، لا بد أن يذهب القمر بعيدا عن هذه الدنيا إلي حيث أتي ، فأنا قمر هذه الدنيا ولكن كيف ؟
وعصفت بها الهواجس ، فتذكرت أن لها أمنية فبشرت وتهللت ، ونضح النور على وجهها واستردت عافية جمالها ، لكن ماذا تتمني ، فدارت برأسها الأمنيات تستحثها الأحقاد على القمر ، فتشتت خاطرها وعبثت الأحقاد بمخيلتها ، فرأت ذهاب القمر إلى غير رجعة ، أو هلاكه ، أو ظهوره في أقبح الصور وأشنعها حتي يعرف الناس سمو جمالها وسموقه على ما عداه ، وأن الناس قد خدعوا فيه ...
ولكنها لم تهتد إلى رأي سديد ، إلي أن جاءها خاطر ذات ليلة من ليالي السهر والفكر قائلا: ماذا لو أضيف جمال هذا القمر الى جمالها فتزداد به جمالا وحسنا وبهاء ...

وانتشت روحها لهذا الخاطر الرائع ، وسرت بروحها فرحة عارمة ، فتمنت أن تصل إلى القمر بجناحين ، وأن تكون عند قربه وملاصقته ذات فم عظيم حتي تستطيع قضمه والتهامه عن آخره .

فتمنتها .. على أن يكون ذلك وقت ظهور القمر أمام الناس جميعا ، فأشاعت بينهم أن هذا القمر هو بضع من جمالها ، وأنها كانت تختبر نفوسهم المشبعة بالجمال ، وأنها وقت ظهوره سترقي إليه أمامهم لتسترد جمالها مرة أخرى ...

وشاع الخبر بين الناس بسرعة الريح ـ حيث لم يكن بالأرض يومها برق ولا رعد ـ وأن السماء ستعود مظلمة من جديد .

ومرت الأيام حتي بلغ الناس يوم ظهور القمر ، واحتشدوا مترقبين صامتين كأنهم أصنام لا روح فيها ، فلا ينبسون بكلمة ولا يهمسون بحرف.
وكان اجتماعهم في ساحة الجبل أسفل التبة التي يعلوها بيت الملكة ، فمرت ساعتان على ظهور القمر وهي بالداخل تكرر أمنيتها وتؤكد عليها ...

وخرجت عليهم تتأود في مشيتها في تكسر وتثن ، ترتدي فستان أبيض لا تكاد تميزه عن جلدها الأبيض الناصع ، يعلو رأسها تاج مرصع بالجواهر الثمينة النادرة المضيئة ، ثم نظرت إليهم وقالت
ـــ الآن ... يعود الوجود إلى طبيعته الأولي فيصدق الصدق ويكذب الكذب ...

وأشاحت ببصرها إلى القمر ، ثم ردته إليهم في استعلاء وخيلاء وأردفت قائلة:
ـــ والآن أيضا ستخضعون لجمالي وحسني بأرواحكم ، وستعشقونني أكثر من أي وقت مضي.

وأخذ الناس ينظرون إلى بعضهم في صمت رهيب ، وخيم سكون مريع على المكان ، وجثم عليهم الذهول بوطأته ، فقطعت عليهم تيههم بصوتها الرخيم بثقة لا حدود لها
ـــ والآن ينتهي عصر القمر ، ويتجدد عصري ...

واتجهت صاعدة نحو القمر يتبعها الناس بأنظارهم في ذهول عظيم حتي وصلت إلى إليه، وأخذت تحدثهم من السماء وهي بجوار القمر لكن الصوت لم يكن مفهوما، فوصل إلى الناس كهمهمات زائغة بين السحاب ، ثم اتسع فمها وعظم فاندهش الناس وهلعوا ، وتسلل الرعب إلي نفوسهم ، ثم أخذت تحدث القمر بصوت أجش غليظ فيه زهو النصر وفخاره وخيلائه مصحوبا بقهقهة عالية مزعجة وصلت إليهم في الأرض، ثم فتحت فمها وقضمت القمر قضمة ، فانكسر في فمها وما استطاعت هضمه فلفظته، فوقعت تلك القطعة القمرية على الأرض ، فانفجرت نورا زاهيا، وتشعبت في قلوب الناس وامتزجت بمشاعرهم وأحاسيسهم فاقترن إلى الأبد العشق والحب بالقمر لتلك القطعة القمرية في نفوسهم وتطلعها إلى وطنها الأول والمقترن كذلك بامرأة حسناء فاتنة .. ولهذا يبدأ القمر صغيرا ثم يتدرج ثم يعود كما كان ولا يسطع كبيرا كأول مرة ، فكل حسناء محبوبة لابد أن تقرن بالقمر بلا إرادة حيث الطبيعة وما اقتضته في الأزل ...

تذبذبت الملكة وارتجفت ، وتناثرت أسنانها في السماء فتشكلت النجوم من هذه الملكة الفاتنة البديعة فأضاءت السماء.

وهبطت الملكة إلى الأرض بعدما فقدت أمنيتها الوحيدة ، وتكسرت أجنحتها ، واجتمع الناس حولها ورأوا أفول جمالها ، وسال منها دم رقيق يفوح عبيرا وعبقا فنبتت منه أزهارا ذات شوك حاد ، فرقت طباعهم ، ونظروا إليها نظرة حب وحزن فاستمدت منها حياة جديدة لكنها حياة قنوعة راضية ، واستكملت حياتها بمفردها مدة من الزمن حتي تذكرها الناس فذهبوا إليها فلم يجدوها ، فبحثوا عنها حتي أعياهم البحث ولم يعثروا عليها وانقطعت أخبارها ، ومع مرور الوقت وتباعد الزمان ، وتناقل خبرها مع الأجيال صارت قصتها أسطورة مختلطة بالخرافات واللا معقول.

لكن بقى شيء مهم اختتمت به القصة في أغلب رواياتها المختلفة ، أنه مهما خرجت قصتها إلى حد الجنون ستظل في قلوب العاشقين خبرا صادقا يقينا؛ لأن الحب في أتم بنائه جنون وأساطير يبنيها العاشق في قلبه ويعيش معها في صدره ، وينعم بها في خياله.

****

كنت أظنه رجلا

متخافيش، أنا كل ميت سنة لما اتحرك
وأعرف أتكلم لمدة أسبوع واحد
وبعدين برجع خيال مآتة تانى.

سقطت الشمس خلف أوراق الشجر وسعف النخيل ، ودخل الليل يتسحب في خفة وهدوء، وأخذ يلوّن الكون بفحمه وسواده ، وأسدل كالستار على يوم مديد من التعب والشقاء في فلاحة الأرض ورعايتها ، وارتفعت أصوات هوام الليل ، كنقيق الضفاضع وازيز الصراصير، وآوت الى الحقل كلابه وقططه من شتي الطرق المحيطة ، لكن لا يزال هناك خيطا ضعيفا للنهار يسمح بالرؤية والحركة في جنبات الحقل المتسعة سمحت (لغالية) بلملمة ما تبقي من أدوات الفلاحة الصغيرة ووضعها فوق الحمار ...

نادت زوجها الشيخ (عبد الرحيم) الذى لا يزال يثبت قوائم خيال المآتة وسط الحقل طردا للعصافير آكلى الذرة وهو المحصول الوحيد الذى تعتمد علي ريعه الأسرة فى معاشها طوال العام ...

ــــ وبعدين يا أبو جميلة انت هتبات هنا واللا ايه؟ الشمس غابت يا اخويا وانا معدتش شايفة حاجة.

التفت نحوها وهو يضع الرأس فوق جسم خيال المآتة:
ــ طب روحى انتى اندهى جميلة وهاتوا البقرة على ما ألّبس خيال المآتة الجلابية .
ــ جميلة؟ ما انا روحتها من العصرية يا حاج.

التفت اليها مستنكرا بشدة:
ــ بتقولى ايه يا وليه؟...ازاى تسيبها تروح من غيرنا مش عيب البنت تمشى لوحدها يا وليه.

قالت وهي تثبت الفأس فوق ظهر الحمار:
ــ يا اخويا متحبكهاش هى صغيرة واللا كانت صغيرة دي عندها ...

قاطعها بشيء من العنف واقترب منها بعدما فرغت يداه من خيال المآتة:
ــ اياك تكمليها يا خرفانة انتى انا مش منبّه عليكى ميت مرة متجبيش سيرة سنها قدامها ولا قدامى.

ـــ لاموآخذة يا اخويا وبعدين أهى مش موجودة.

ضغط على مرفقها بعنف قائلا:
ـــ يا ولية افهمى، اكتر حاجة تضايق البنت انك تفكريها بسنها، فما بالك اذا كان ابن الحلال لسه مجهاش؟ وبعدين ربنا يرزقها .. لكن انتى لا منك ولا كفاية شرك كل شويه البنت عندها تلاتين سنة البنت عندها تلاتين سنة وانتى متعرفيش دا بيعمل ايه فى نفسيتها.

نزعت يدها برفق وقالت معتذرة:
ـــ خلاص يا حاج والله ما كان قصدى.
نظر نحوها بتأفف وقال:
ـــ خلصت روحك .. امشى قدامى الليل خلاص دخل ... الله امال فين البقرة؟

قالت وهي تنحني لتلتقط خطام الحمار من الأرض:
ـــ انت نسيت يا حاج ؟ البقرة والده.

قال في غيظ مشيرا بكفين مفرودتين منفرجا الأصابع:
ـــ طيرتي البرج اللي فاضل في دماغي .. ياللا امشى احسن والله احطك مكان خيال المآتة للصبح للعصافير تنهش راسك .

*****

دخل إلى الدار وجلس فى صحنه على الكنبة ونادى على ابنته جميلة ، كانت بغرفتها مستلقية على فراشه تستمع لأغنية بالراديو شاردة معها ، فأخذ يردد نداءه:

ـــ جميلة يا جميلة.

أغلقت الراديو وأسرعت إلى والدها:

ــ نعم يا با.
ــ يا بنتي ابقي وطي صوت الراديو ده مش كده ، انا خايف على ودانك.

ابتسمت وقالت متدللة ومالت علي رأسه تقبلها:
- حاضر يا عم الشيخ ... امّال فين امي

اعتدل في جلسته وقال متهكما:
ــ امك في الزريبة بتدخل الحمارة وزمانها بتتخانق مع العجل كالعادة.

ابتسمت ولم ترد ، فأردف قائلا:
ــ هاتيلى يا بنتى الدوا من عندك .
ــ طب مش هتاكل الأول.

أطلق زفرات وجعه وأمسك بظهره لشدة ألمه:
ــ هاتى يا بنتى الدوا الاول الوجع هيفلق ضهرى.

انصرفت قائلة:
ــ سلامتك يا با.
ــ الله يسلمك يا بنتي.

دخلت غالية تنفض يدها من تراب الحظيرة واتجهت نحو الزير فشربت من كوبه وجلست بجواره:
ــ ما أنا فضلت اقولك ياللا نمشى انت اللى ركبت دماغك.

اتجه بوجهه إليها:
ــ يا ولية يعنى كنتى عايزانى اسيب خيال المآتة مرمى كده ع الأرض ، نصبح نلاقى العصافير اكله نص المحصول.

قالت بغير اكتراث وهي تضع الكوب على المنضدة:
ــ ايوا كنت سيبه هو يعنى كان من بقيت اهلنا، أما أمرك عجيب يا حاج.

تبرم من قولها وتأفف ، أحضرت جميلة الدواء فتناوله منها وقال في ضعف:
ــ والنبى يا بنتى تسكّتى امك احسن كلامها بيخلى الوجع يشد عليا.
ــ انا ماليش دعوه انتم احرار مع بعض، انا رايحه اجهز باقى الاكل.
ــ والنبى يا ابو جميلة خيال المآتة ده شكله حلو قوى .. إلا مقلتليش أنت جبت راسه دى منين؟

تناول حبة دواء وشرب بعض الماء ووضع الكوب على منضدة أمامه:
ــ الواد على ابن الحاج سعيد جبهالى من مصر أصله شغال فى دكان ملابس كبير اوي فى التحرير.

حضرت جميلة بأطباق الطعام على صينية وهي تقول:
ــ العشا جاهز.

صرخ الرجل فجأة من شدة الوجع ففزعت غالية وسقطت اطباق الطعام من جميلة وأقبلت على أبيها في لهفة ..
ــ روحى بسرعه يا اما هاتى الدكتور احمد هتلاقيه فى البيت دلوقتى.

انطلقت امها على الفور خارجة إلى الشارع المظلم ، ومددته جميلة على الكنبة في حنو بالغ واحضرت من غرفتها غطاء فوضعته عليه.

وقفت غالية أمام البيت تتفحص مواضع النور في الطريق المظلم ودققت النظر في شخص يسير على مقربة من البيت فوجدته الدكتور أحمد راجعا من عيادته فنادته بلهفة، فأسرع إليها قائلا:
ــ خير يا خالة غالية كفالة الشر فيه إيه؟
ــ عمك الشيخ عبد الرحيم يا ابني صرخ من ضهره ووقع مننا.

دخلا تتقدمه غالية قائلة:
ـــ اتفضل يا دكتور.

هرعت جميلة إلى غرفتها واستترت بالباب تنظر إلى صحن الدار
ـــ مالك يا عم الشيخ مش عوايدك الرقدة دى الف سلامة؟

قال متوجعا:
ـــ الله يسلمك يا احمد يا ابنى، ضهرى بعيد عنك شد عليا فجأة وخشب ومش قادر اتنيه.
ـــ طب نام على جنبك يا عم الشيخ.

استدار الشيخ عبد الرحيم في رقدته ، فتفحص ظهره بيده برفق فكان يئن مع كل لمسة لظهره ..
ـــ خير، ان شاء الله خير، انا عايزك بس تستريح ومتنزلش الغيط اليومين اللى جايين دول و ..

اعترض الشيخ عبد الرحيم في دهشة:
ـــ ازاى بس يا احمد يا ابنى ما انت عارف ان الفلاحين كلهم على وشك جمع الدرة

رد في حزم لا يقبل النقاش:
ـــ مفيش كلام هيمشى غير اللى انا قلتهولك ، واذا كان ع المحصول انا هقفل العيادة وانزل اجمعهولك.
ـــ العفو يا ابنى .

ـــ العفو يا ابنى! ما انا كل سنة بقفلها لما أبويا الحاج جاد الله بيجمع محصوله ، استريح انت دلوقتى .. تعالى يا خالة عايزك.

ـــ شوفى يا خالة انا مش عايز اقولك الكلام ده بس لازم اقولهلك الحاج عموده الفقرى في حالة سيئة جدا أي حركة هتبقى غلط عليه يعنى لا غيط ولا غيره حتى الحمام يعمله فى سريره مفهوم ، والعلاج ده يمشى عليه فى مواعيده والف سلامة عليه، سلام عليكم.
يناولها روشتة العلاج فتودعه غالية مشفوعا بالشكر وتغلق الباب:
ـــ وعليكم السلام يا ابنى.

خرجت جميلة إلي صحن الدار متطلعة إلى أمها
ـــ سلامتك يا اخويا ألف سلامة.
ـــ الدكتور قالك ايه يا ام جميلة.
ـــ خير يا اخويا كان بيقولى متخلهوش ينزل الغيط بكره.

تنهد في أسي ووضع يديه فوق بطنه قائلا:
ـــ لله الأمر من قبل ومن بعد.

وساد الصمت بضع لحظات فقطعته جميلة قائلة:
ـــ متزعلش نفسك يابا ، صحتك بالدنيا.

اتجه بنظره نحو غالية:
ـــ طيب يبقى انتم تنزلو بكره بس تنزلو متأخر ع الساعة سته الصبح كده بلاش تروحو الفجرية، والعصرية ألاقيكم هنا.

بادرت جميلة بالرد قبل أمها:
ـــ شوف يابا انا اللى هروح الغيط ، وخلّى امى هنا جنبك تراعيك.

جحظت عينا الشيخ عبد الرحيم وقال مستنكرا:
ـــ انتي اتخبلتي يابنت انتي واللا اتخبلتي ، ازاي تقولي حاجه زي كده ، إنتي عايزه الناس تاكل وشي ويقولوا راقد مرحرح في بيته وبنته بتراعيله أرضه!

ربتت على ركبته في حنو:
ــ متخافش يابا انا هروح متأخرة وهاجى بدرى يعنى يدوب البهايم هترعى وهجيبها واجى على طول.

تنهد كأن لم يجد حلا آخر ..
ــ بس خدى بالك يا بنتى من نفسك.

قامت غالية تلملم الطعام الواقع على الأرض وهي تقول:
ــ يا خويا جميلة ميتخافش عليها ، دي عندها ..

قال في غيظ رافعا يده إلى السماء
ـ الله يقطع لسانك ويخلصني منك!

*****

جلست جميلة بجوار الغرفة التى بناها والدها الشيخ عبد الرحيم فى أول الحقل لتكون مستراحا له ومكانا لطعامه وشرابه وصلاته بعدما أنهت جمع الحشائش من الحقل اللازمة لإطعام البهائم ..

سرح بها الفكر الذى لا يفارقها بأنها قضت من العمر ثلاثين عاما دون زواج، وجالت بخاطرها تلك الأفكار التى تسهرها بالليل وتغصها بالنهار إذا رأت أقرانها ومن دونها سنا يسرن مع أزواجهن وأبنائهن...

فاكتسي وجهها كآبة وحزنا ، وزاد شرودها وكأنما انتقلت إلى دنيا أخري ومكانا آخر، وحدثتها نفسها:
وبعدين فى الليل الطويل اللى مش باينله نهاية ده؟ وايه آخر صبرى ؟
اشمعني أنا ؟ وانا بقى عندى تلاتين سنة ولسه الباب مخبطش ولا حد وقف عليه؟ أف... يا ريت بس كانت البنت زى الولد يوم ما يحب يتجوز بيروح لابوها على

طول ويقوله انا عاوز اتجوز بنتك ، لكن للاسف البنت لازم تفضل مستخبية لحد متعفن ولا حد يقولها ملتك ايه ، انا موافقة على اى حد المهم يكون راجل والسلام ينقذنى من سجن العنوسة اللى بقيت فيه رجل بره ورجل جوه ، مش لازم يكون دكتور او ظابط او مهندس بس افرح زى البنات التانية واخلف ويبقالى ولاد بدل ما انا قاعده كده زى النخلة الدكر لا بتطرح ولا بتضلل ...

قطع عليها هاجسها ذلك الذى رأته ينظر نحوها من وسط الحقل ، فارتاعت لنظرته، وتلفعت بشالها ، وقامت تنظر إليه تخاطبه في حدة:
ـــ مين؟ أنت مين يا جدع انت وايه اللى موقفك مكانك هنا ، انت مش عارف ان دى أرض الشيخ عبد الرحيم.
لكنه لم يرد وظل ينظر اليها ، فتناولت الفأس واقتربت منه بضع خطوات ، وأردفت قائلة:

ـــ إيه البارد اللي مبيردش ده .. انت يا جدع إنت ياللا امشى من هنا واخرج من الغيط أحسن والله الم عليك اهل البلد يقطعوك.

تزايد انفعالها لسكوته ، فتحركت نحوه عازمة على شر تصيبه به ، واستطردت قائلة
ـــ هو انا مش بكلمك انت ايه ...

وسكتت فجأة إذ تبينت أنه خيال المآتة ، فأردفت قائلة:
ـــ يخرب عقلك ، خيال المآته؟ أنت هنا من أمتى.

وقفت أمامه ونظرت في وجهه وأمعنت النظر فيه، فاستلطفته وأخذت تتأمل ملامحة بعينين حالمتين في رقة وإعجاب ، وجلست متربعة أمامه تحدثه:
ـــ بص بقى انا هقعد أقولك سهراية كده احسن ما انا قاعدة اكلم فى نفسى لحد ما اقربت اتجنن ، واذا كنت غلطانة قوللي انا غلطانة ماشى، بقى انا دلوقتى بنت عندها تلاتين سنة ولسه متجوزتش بذمتك بقى دى مش حاجة تجيب العقد النفسية، هو انا وحشة واللا منفعش زوجة؟

وأشاحت ببصرها عنه في أسي ، ثم عادت إليه متحلية بهدوء مصطنع:
ــ بقى ياخيال المآته انا راضية قولك ، أنت لو راجل بجد كنت تتجوزنى والا لأ؟
ــ كنت اتجوزك طبعا.
قالها خيال المآته وهو يتحرك من مكانه محاولا تحرير نفسه ، وقد اكتسي لحما وعظما ففزعت جميلة وهبت مسرعة لكنها وقعت على الأرض بعنف

ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

حاول طمأنتها فاقترب منها:
ــ متخافيش متخافيش ، انا كل ميت سنة لما اتحرك واعرف اتكلم لمدة أسبوع واحد وبعدين برجع خيال مآته تانى .

واستمر في طمأنتها فاطمأنت له ، وأخذت تحدثه وأفاضت ما بنفسها بين يديه وشعرت بحبه يسري بأوصالها ، وأبدى لها حبه وإعجابه، فكانت تتأخر كل يوم إلى الليل فلا يرجعها إلا إذا ذهبت أمها إليها فتحضرها فتضطر إلى فراقه قسرا ...

ودارت الأيام السبعة، وقبل أن ينتهى اليوم الأخير صارحها بما نسيته من كلامه أول الأسبوع بأن اليوم هو آخر يوم يكون فيه إنسان بل آخر ساعة.
فبكت وانتحبت ، وكأن كلامه عن الفراق وسواس تحاول طرده عنها فقالت جزعة متوسلة:
ــ مش ممكن تسيبنى أنا بحبك ومتفقين علي الجواز.

فقال في أسى:
ــ مش بإيدى .. أنا كلها ساعة واحدة وهرجع تانى خيال مآته يعنى شوية قش.
ــ طب استنى انا هاروح انادى ابويا وهنجيب المآذون واتجوزك حتى ولو ساعة واحدة بس يبقى اسمى اتجوزت أرجوك .
وذهبت تجري وهى تبكى و تردد لله أرجوك...أرجوكلله.

ودخلت الدار وهى تبكى ففزع لها ابوها وامها ورددا عليها:
ـــ مالك ياجميلة مالك يا بنتى حد اتعرضلك قوليلى مين هو انا خلاص شديت حيلى وممكن اقطعلك رقبته.

قالت وهي تحاول التقاط أنفاسها:
ـــ فى واحد عايز يتجوزنى واذا متجوزناش خلال ساعة هينتهى ومش هشوفه تانى إلا بعد ميت سنة.

نظرت غالية إلى زوجها ومالت عليه هامسة في أذنه:
ـــ أقرأ لها آية الكرسى يا خويا وأذن فى ودنها.

اقترب منها أبوها وضمها لصدره:
ـــ تعالى يا حبيبتى مالك ياجميلة أعوذ بالله من الشيط ..

دفعت والدها وأبعدته عنها بعنف وصرخت في جنون:
ـــ انا مش مجنونة ولا معفرته ياللا معايا مفيش وقت.

نظر لغالية في أسي وضرب جنبيه بكفيه.
ـــ ماشى يا جميلة ياللا يابنتى لما نشوف اخرتها.

ذهبوا إلى الحقل ... ادار الشيخ عبد الرحيم نظره فى الحقل فما رأى أحدا:
ـــ هو فين الراجل ده يا جميلة يا بنتى ... قصدى العريس.
ـــ هو اللى واقف هناك ده يابا.
ـــ خيال المآته؟ انتى اتجننتى؟
ـــ دا راجل يا با مش خيال مآته.
ـــ راجل ايه يا بنت المجنونة ، ما تتكلمي يا غالية يا بوز الإخس.

لكن غالية لم تزد على تأوهات مكتومة ودموع مرسلة ، وتابعت جميلة تأكيداتها:

ــ والله دا راجل يابا.

فكور قبضته ولطم رأسه وأشار بيده:
ــ لما نشوف تعالوا ورايا ..

ووصلوا إلي خيال المآتة فقال:
ــ يا بنتى ما هو هو خيال المآته اللى انا زرعته هنا من اسبوع عشان يطفش العصافير لا زاد ولا نقص.

فصرخت باكية وكأنها لا تريد ان يكون ماذكره أبوها حقيقة:
ــ بقولك راجل راجل انت مش مصدقنى ليه انت عايزنى أعنس؟
ــ طب شوفى كده أنا هثبتلك.

فنزعه من مكانه وأردف قائلا:
ــ فين بقى الراجل اللى فيه؟

ولوح به في الفراغ أمامها
ـ وعشان أثبتلك اكتر أهو

وألقاه على الأرض وأخرج من جيبه ولاعة واشعل فيه النار ، فحاولت جميلة أن تطفئه وهي تقول باكية:

ــ والله دا راجل والله دا راجل وعايز يتجوزنى حرام عليك يا با حرام عليك ، ليه عملت كده.
فأمسكتها أمها واحتضنتها والدمع ينهمر من عينها ...

ومرت دقائق حتي تحول خيال المآتة إلى فحمة سوداء فقال أبوها بلهجة حانية متكسرة من الحزن:

ـــ شوفتي يا بنتى انه مش راجل ، دا لا سال منه دم ولا حتى صرخ وقال آه.

قالت جميلة فى شرود:
ـــ أنا آسفة يابا انا كنت مفكراه راجل.

*****

الكابوس

استيقظت عيناه في أرض ترابية مترامية ضحلة ، بها بعض الصلابة في بعض مناطقها التي تسمح بالسير عليها بشكل مستقيم، وكانت السماء متراكمة السحاب الرمادي المائل إلى السواد بكثافة، وخلت السماء من أي شيء سوي السحاب والشمس، لكنها بلا نور أو ضوء، كانت مجرد جسم معلق في السماء عديم الفائدة، باهتة اللون كالعين الحزينة، لا تشع نورا إلا بقايا ضوء قاتم الإصفرار كمصباح شديد الضعف.

وصل إلى بيته بعد مغيب الشمس تحت تأثير المخدر الطبي محمولا على كرسي بصحبة زوجته وأبنائه الثلاثة وبعض الأصدقاء بعد تضميد جراحة الناجمة عن حادث سيارة ، أخبرهم الطبيب أنه ربما تكون هناك حاجة لإجراء عملية جراحية إن لم تستقر الحالة على ما تلقى من علاج خلال اليومين الماضيين بالمشفى ...

وضع على فراشة بواسطه ابنيه أحمد وكرم وبعض أصدقاء والده ، وخرجوا من الحجرة تاركين الأم وابنتها معه ، لم يشأ أصدقاء الوالد البقاء وأصروا على الانصراف تخفيفا عليهم واعدين بزيارة في الغد للاطمئنان عليه.

جلس الشابان بصالة البيت مكتأبين ، لا تند عن أحدهما كلمة حتي كسرت الأم حاجز الصمت بخروجها تعرض عليهما بعض الأطعمة الخفيفة فهزا رأسهما موافقين ، واتجهت (مها) نحو التلفاز فقامت بتشغيله واخفضت من صوته ...

أحضرت الأم الطعام ، وتناثروا بأرجاء الصالة بيد كل منهم طبق لكن بلا شهية ، وتشتتت العيون فلا يخلص النظر إلى شيء ، سوي نظرات متداولة بينهم على فترات ، وخيم الوجوم على الصالة فلا صوت سوي التلفاز ونشرة الأخبار.

قطعت الأم هذا الركود وتحدثت لابنتها مطمئنة على ابنها وزوجها ، لكن سيرة زوجها دائما تسبب لها مضايقات نفسية ، كذلك لأخويها اللذين أطرقا برأسيهما إلي الأرض .

وتابعت الأم مسترسلة في حديثها ، فبدت وطأة الحديث في نفسية مها ، واستاء لها أخواها ، فأرسل (أحمد) يده في طبقه متظاهرا بانهماكه في الطعام لجوعه ، وأطلق (كريم) عينيه في التفاز وانهمك في متابعة الأخبار ولم ينبسا ببنت شفة.

كان الأب بمفرده في غرفته كما تركوه ، وبعد سويعات خيمت عليه حالة بين النوم واليقظة لا تخلص لإحداها ، يتمتم بكلمات ثقيلة على لسانه بلهجة غير مفهومة ، ولا يكاد جفناه أن يتباعدا إلا اصطكا ببعضهما من جديد في عنف من ثقل يملأهما ...

وتفصد جبينه بعرق غزير لزج أمطر وجهه ، وكأن الحجرة على أتون هادئ الأوار.

اقتربت الساعة من الثالثة فجرا ، فخمدت أصوات العائلة سوي صوت التلفاز بالخارج ، حيث اصطحبت مها أمها إلي حجرتها القديمة ، ودخل أحمد إلى حجرته منهكا خائر القوي ، لا تكاد تستقيم له قدم من الكلل والتعب ، فارتمي على فراشه حتي سمعت طقطقة أخشابه وتفسخها.
وظل كريم أمام التلفاز ممددا حتي غفت عيناه في جو الصالة المظلم.

خرجت الأم ترتشف بعض الماء من ثلاجة مياه صغيرة بالصالة ، فوجدت كريم يغط في نوم عميق ويهذي بكلمات من قاموس يومه المنصرم أملاها تعبه ومجهوده على عقله الباطن ـتصطك الستائر لنسائم الفجر البديعةـ فارتشفت الماء وأغلقت التلفاز ، وأحضرت غطاء خفيفا دثرته به ، ثم أرخت الستائر على النافذة المفتوحة ، حيث نسائم الصيف الفجرية لا تؤذي، ثم ألقت نظرة عابرة على زوجها فلم تستبن هذيانه .. ظنته نائما فمضت.
ولا يزال الأب في حالته لم تشذ إلى إحدي طرفيها ...

كان الأستاذ خليل مدير إدارة بوزارة الزراعة منذ خمسة عشر عاما ، وكان يخشي الموت خشية مفرطة كأشد ما يكون الخوف ، وكان أكثر ما يزعجه وييتأس له هو خبر أحدهم إن مات ، إذ يراه خطوة جديدة للموت نحوه ، وكأنه محصن بأرواح الآخرين.

ارتفع أنينه أكثر لكنه لا يصل إلي مسامع أحد مقترنة بأنين مكتوم ، وأخذ يتردد النفس بصدره بسرعة وصعوبة ، ثم هدأ وأغمض عينه ثم ردد بصوت مرتجف مزعور أين أنا ؟ ثم غط في نوم عميق ، وكأنه قد مات.

*****

أستيقظت عيناه في أرض ترابية مترامية ضحلة ، بها بعض الصلابة في بعض مناطقها التي تسمح بالسير عليها بشكل مستقيم ، وكانت السماء متراكمة السحاب الرمادي المائل إلى السواد بكثافة ، وخلت السماء من أي شيء سوي السحاب والشمس ، لكنها بلا نور أو ضوء ، كانت مجرد جسم معلق في السماء عديم الفائدة باهتة اللون كالعين الحزينة ، لا تشع نورا إلا بقايا ضوء قاتم الإصفرار كمصباح شديد الضعف ، وتناثرت بهذه البقعة أشواك وصبار بشكل غير منتظم ، مع انتشار لهوام وحشرات أرضية ، وكلاب نابحة غريبة المنظر ، ولم تخل الأرض من شجر أينعت أغصانه أحجارا ، وقامت على مرمي البصر أجمة ذات أشجار سوداء تشتعل كل حين ، حتي إذا صارت فحمة هبت عليها ريح فذرّت سوادها المحترق فانتشر في الأرجاء ، ضُربت السماء برعدة فبرقت بلون أزرق قاتم مخيف فارتاع وهب واقفا ، أراد أن يصرخ لكن الكلمات تجمدت على شفتيه ، وهبت رياح ساخنة من تلقاء الأجمة معبأة بحشرات دقيقة ذات رائحة فجة ، فتحاشى وجهه بثوبه وتقوقع على الأرض حتي هدأت العاصفة ، وسمع من تحت ثوبه نبيح الكلاب يبتعد كأنها فارة مذعورة ، فكشف عنه ثوبه في بطء حتي انكشف كامل وجهه ، فتلفت على جانبيه فتلبد وجهه ، وتجمدت دماؤه في عروقه ، إذ رأي من وقف عند رأسه يخاطبه قائلا: قف.

كان شبحا ، كان إنسانا ، كان جنيا ، كان أي شيء ، لكنه لايوصف بشيء رآه في الحياة ، فقد كان مستقيم الخلقة كإنسان ، متين البدن فارع الطول ، جسيما قويا، أصبعه كذراع وذراعه كجسد إنسان ، له عينان متسعتان ترسلان برقا ورعدا، ملامحه موت محقق لمن يراه ويملأ عينيه منه ، أسنانه كالسيوف والخناجر ، يتدلي شعره حتي منتصف ظهره .

فأطاع الأمر، فوقف واجما لا ينبس بكلمة ، مسدد النظر لا يفقه شيئا كأنه تمثال منصوب.
وظل هذا الشيء الذي لا يفقه كنهه يدور حوله نصف دائرة ، ورفّ المكان صمت عميق ، إلا طرقعات قدمه المدوية على الأرض ـ إذ كانا واقفين على قطعة صلبة منها ـ والتى تبعث في نفسه الرعب وتزلزل كيانه فيهتز قلبه مع كل خطوة يخطوها .

ثم وقف أمامه وأمعن النظر الغاضب في وجهه ، فارتجف خليل أيما رجفة ، وتصبب عرقا حتي ابتلت الأرض تحت قدميه ، فابتسم الشيء ساخرا وقال:
ـــ الآن أنت خائف يا خليل!

فجحظت عينه لمعرفته باسمه ولأن هذا الصوت لا يخفي عليه ، إنه ليس صوت إنسان كان يعرفه أو صادفه ، ربما يكون صوت حالة من حالات الوجود ، أردف الشيء قائلا بعد صمت لحظات:
ـــ أعرف أن في صدرك سيل من الأسئلة ، أبسطها تريد أن تعرف من أنا وأين أنت أليس كذلك!
فهز رأسه في إعياء شديد موحيا بنعم ثم قال:
ـــ أظن أنك الموت.

فغضب الشيء غضبة عنيفة ، وعلا صوته كرعد السماء ناهيا أن يردد هذه الكلمة فقال خليل في صوت لا يسمع:
ـــ إذن فمن أنت؟

فرد الشيء بأسلوب غليظ ووجه متجهم أكثر من تجهمه الطبيعي:
ـــ لا تسأل.

وهمّ بالانصراف مثيرا غبارا تحت قدميه ، فتبعه مستغيثا:
ـــ أرجوك لا تتركني وحيدا في هذه الأرض الموحشة ، وأنا لا أدري ما هي ولا كيف الخروج منها.

فالتفت إليه وقد تدلت تقاسيمه المعقدة إلى أسفل فارتسم على وجهه عبوسا لا شيء يشبهه ، وسكت برهة ، ثم قال بصوت بعث في نفسه الحزن والأسي والحسرة:

ـــ لكم هدّدت موظفيك إن لم يطيعوا تسلطك وتجبرك أنك سترسلهم خلف الشمس، فلتعتبر نفسك الآن خلف الشمس إن أردت تفسيرا يريحك ، ولا أظنك سترتاح هنا.

ثم قال له بنبرة أكثر غلظة وحزما:
ــ أسمع يا خليل ، لا تفكر في العودة من جديد ، فمن قادته نفسه إلى هذا المكان فلينس العودة ، لأنها ألم فوق ألم.

فارتاع لما سمع ، وارتجف كعصفور مبلل بالماء في الشتاء الماطر القارص حتي اصطكت أسنانه ، وندت منه كلمات بائسة فقال:
ــ ولما ألم فوق ألم هل جئت هنا لأتألم ، ألا من رحمة!
ــ لا رحمة يا خليل ، فأنت بأرض الآلام.

وتحرك الشيء فأراد أن يتبعه فالتفت إليه ناهيا في غضب:
ــ حسبك ، لا مزيد من الأسئلة ولا تتبعني إن أردت الحياة.
ــ وهل هذه حياة؟
ــ واجه مصيرك الذي رسمته بيدك.

فأطرق إلى الأرض برهة ، ثم نظر إليه يسأله ، فلم يجده ، فاستدار حول نفسه فلم يجد أحدا ، فانكفأ على نفسه خائفا مرعوبا ، ترتعش جفونه وشفتاه ، وبرزت تجاعيده التي طالما أنفق عليها من مال الوزارة ليخفيها بعمليات التجميل ، حتي يستطيع أن يتودد إلى الصغيرات دون كلفة أو استحياء ، فقد كان رجلا ناهز الستين من عمره وما تراه إلا حسبته ابن الثلاثين ، تبدو عليه نضرة من ترف وبزخ ، إلا أن النعيم لا يبدو على أحد من أسرته غيره ، فقد كان بخيلا شديد البخل .
هبت ريح عظيمة فاكتسحت تراب الأرض حتي تركتها صلبة بلا ذرة تراب ، فاختبأ منها خلف شجرة حتي هدأت ، فسقطت عليه بفعل الرياح ثمرة حجرية صغيرة من ثمراتها ، فسقطت على كتفه فأصابته بوجع أنّ له ، فجلس بجذع الشجرة ماسكا كتفه لشدة ألمه ، ثم تسللت يده إلى أسفل حتي أمسك بطنه وفرقها من جوعه ، فأخذ يردد في بؤس بالغ وهو مغمض العينين: إني جائع ففتح عينيه فوجد أمامه خوان عليه أطعمة فاخرة ، فسري السرور إلى نفسه ، لكنه لم يستطع الوصول إليه ، لشد ما كان منهكا متعبا ، فزحف على بطنه حتي وصل إليها شاكرا ، ومد يده وأخذ إحدى ثمار الفاكهة

وقضمها فكادت أسنانه أن تنفرط .. كانت حجرا ، فرمي بها في غضب، وتحسس باقي الأطعمة بكلتا يديه واحدة تلو الأخرى ، فتيقن أنها كلها أحجارا ، وأنه قد عبث به ، فتحامل ووقف غاضبا ، يهذي بكلام كثير في يأس بالغ ، فلما هدأت عاصفته نظر إلى الغابة المشتعلة ، فجز على أسنانه في تحد بالغ وعزم على اختراقها ، فسار إليها ، حتي إذا اقترب منها اشتعلت من جديد ، فلفحته بعض حرارتها ففر راجعا .. فانكفأ على وجهه ، فاتسخ وامتلأ فمه من رماد الغابة ، كان هناك ثعبان حاد الأسنان يقترب منه ، فهرع إلى حجر وضربه على رأسه فقتله، ثم قام في بطء شديد متألما ، ورجع إلى جذع الشجرة الحجرية ، وسرح يائسا ..

ضُربت السماء بضربة رعدية جلجلت ، ففزع فزعا شديدا .. ثم عاد إلى ما كان ، وأطلق نظره حوله في عبث ، كانت الأشواك والصبار تزحف على المكان فزادت واتسعت رقعتها ، ثم رفع عينيه إلى السماء فوجد ما لا يحصي عدده من الغربان السوداء الكاحلة تسبح في السماء بين السحاب القاتم ، سقطت عليه حشرة من الشجرة ، في حجم كف اليد ، فنهشت كتفه فانتفض صارخا وطرحها أرضا وتورم كتفه ، ثم عاد إلي هدوء بائس فرضه الإجهاد ونفاذ القدرة ، وأسند رأسه إلى جذع الشجرة ، وأيقن أنه -لا محالة- سيموت بهذه الأرض القفر ، وأغمض عينيه ، ومضي وقت ، ثم فتحها على صوت خطوات تقترب منه ، فأخذ يتلمح الوجه القادم ويتفرسه ، إنه يظن أنه يعرفه ، تري من هذا؟ ، وحدق في الرجل وضيق عينيه ، حتي انشرح صدره قائلا وقد ارتسمت عليه ابتسامة عريضة:

ـــ الدكتور سعد عبد اللطيف ، يا أعظم مدير إدارة شهده التاريخ.
لكن الرجل ظل جامد الملامح وكأنه لم يسعد برؤيته ، حتي إنه لم يلق عليه تحية ولا أبدي سرورا، فأردف قائلا:
ـــ مديري العزيز ، لم هذا التجهم ألا تتذكرني ؟ أنا خليل أحمد نائبك في الوزارة، أنا...

لكن الرجل قاطعه في تبرم قائلا:
ـــ كنت شر نائب يا خليل.

ـــ أنا ؟ كم كنت مخلصا لك أيها الرجل الطيب.
ـــ كف عن هذا التظاهر والنفاق ، فلا تظن أن نفاقك سينفعك هنا كما نفعك هناك ، فهنا واقع الحقيقة ولا مجال للكذب.

فانحسرت نفسه وانذوي وجهه ولم ينبس بكلمة فأردف الرجل قائلا:
ـــ تذكر يا خليل كم كنت أئتمنك على الإدارة وقت غيابي ، فكنت تعبث بالحسابات ، وكوّنت من خلف ظهري شبكة مع بعض الموظفين قليلي الضمير لكي تستولي على بعض أموال الوزارة ، وكنت تذمني عند وكلاء الوزارة واتهمتني أنني أختلس من أموالها، وطلبت منهم أن يقوموا بجرد ليتضح لهم صدقك ووفائك ، وقد كان ما أردت ، ففصلت من عملي وضعف حال أسرتي ، وانتهت التحقيقات بسجني ثلاث سنوات ، قل لي ماذا أفعل بك.

فجهدت نفسه حتي تقول:
ـــ أنا آسف ، فلتسامحني ..
ـــ للأسف يا خليل في هذه الأرض ليس هناك مجال للأسف أو إبداء الأعذار!

ثم تناول حجرا من الأرض وقال:
ـــ خذ هذا يا خليل جراء فعلك.

فانجذب الحجر إلى جسده ولصق به ، فحاول مرارا أن ينزعه فلم يستطع ، وتابع محاولات بكل قواه ، فتشقق جلده ونزف ، فصرخ صرخة مدوية في أرجاء المكان نعقت لها غربان السماء ، فتركها لشدة ألم النزع ، ثم رفع عينه فوجد الرجل يتلاشى لبعد المسافة بينهما .

ودب الألم في أوصاله ، وخارت قواه ، وهمدت نفسه ، وندت عنه تأوهات ضعيفة لا تكاد تسمع، ورثّت هيئته أكثر ..
تفاجأ بمن يحدثه من خلفه مستندا على الشجرة ، ويعبث بثمارها الحجرية
ـــ ها قد أتيت يا خليل.

ثم ضحك ساخرا منه وأردف قائلا:
ـــ مرحبا بك.
فقال في ضعف شديد وهو لا يستطيع الالتفات نحوه:
ـــ من؟

فتقدم الرجل ووقف أمامه ، فرفع له بصره وقال:
ـــ معتز؟ صديقي الحميم.

ضحك بملء فيه متصنعا ، ثم تجهم وقال:
ـــ صديقك الحميم ؟ من ؟ أنا ؟ يالك من أفاق لعين أيها الشيخ المتصابي ، كيف راودت زوجتي واختليت بها في غيبتي ، كيف أئتمنك وتخونني ، كيف أدخلك بيتي فتعبث بأهله ، ماذا أفعل بك يا خليل؟؟
ـــ لا لم أفعل لقد كذبت عليك.
ـــ لا تجهد نفسك ، فهنا أرض الحقيقة ولا مجال للكذب.

ثم أخرج حجرا من جعبة كان يحملها ورماه به فالتصق بجسمه ، وتلاشي الرجل ، فاشتد همّه ، وتأوه صارخا باكيا ، وارتسم الحجران على كتفيه بثقلهما كسنمي جمل وهبت عاصفة محملة بسوس صغير فلم يعبأ لها ، وظل جامدا هامدا.

ـــ تؤذيك عاصفة الغابة يا خليل ، كم أنت مسكين!
فنظر باتجاه الصوت فوجد رجلا قاعدا محتبيا على مقربة منه ينظر إليه فقال:
ـــ من ، حسن الفراش!
ـــ نعم ، هو بعينه يا خليل.

فقال ولا تكاد تسمع كلماته
ـــ تأدب يا حسن فأنت تحدث الأستاذ خليل.
ضحك الرجل في سخرية وقال:
ـــ كم أنا مشفق عليك يا خليل حيث لا ألقاب هنا ولا قرابة.

ـــ تشمت بي ؟
ـــ نعم أشمت بك ، وأسخر يا خليل ، فلكم أحتقرتني ، وسخرت مني ، وأهنتني ، حتي في أعز الأوقات التي ظننت أنك ستجعل مني شأنا أمام زوجتي عندما زارتني في العمل، أهنتني أمامها وصغرتني ، ونلت من نفسي ، ماذا أفعل بك يا خليل؟؟

لكن خليل أسند رأسه إلى الشجرة وأغمض عينيه ، ثم انتفض ولم تنفتح عينيه غير أنها ندت بالدموع لحجر ثالث قد لصق به.

وتعددت الأحجار التي لصقت بخليل وحاول أن يقف فلم يستطع من ثقلها عليه حتي بلغ غاية الإجهاد وانتهي أمره إلى اليأس ، واستقرت حالته هذه بعض الوقت حتي ناداه صوتٌ لطيفٌ قائلا:
ـــ أبي!
فقال مستغيثا وكأن الحياة قد أدركته:
ـــ مها .. أدركي أباكي يا مها ، أبوكي يدفن بين الصخور وهو حي.
ـــ لا أستطيع أن أفعل لك شيئا ، أنت فعلت هذا بنفسك.
فقال معنفا:
ـــ فلماذ أتيتِ إذن ، لتلقميني حجرا كالكلاب الأغراب.

فتجاهلت كلامه وقالت:
ـــ ما زلت أري عنجهيتك يوم رفضت الزواج من هذا الإنسان الذي أرغمتني عليه لتنال حظوة عند أبيه فتترقي في عملك ، فأذاقني البؤس والشقاء ، وكنت أستغيثك فلا أرى للأبوة في نفسك عاطفة تنجدني من عذابي ، ماذا أفعل بك وقد رزقتني شقاء الحياة وبؤسها.

ثم انتقت حجرا صغيرا ، ورمت به علي الأرض ولم تشأ أن تقذفه به ، فتدحرج الحجر على الأرض منجذبا إليه ولصق به ، فتنفس كأنما يصعد قمة عالية ولهث ، ثم تجمد فجأة لصوت صارخ قائلا:
ـــ خليل ..

فالتفت إليه وتعقدت ملامحه كأنما رأي وجها يكرهه:
ـــ أحمد!
ـــ نعم أحمد ، أريد أن أسالك سؤالا واحدا ..
فقاطعه قائلا في حمق:
ـــ أرحل عني ، لا أود أن أراك أيها الشقي.
ـــ هذا هو السؤال الذي أجبته قبل أن أسأله ، لما هذا الكره الذي تكنه لي ، ألست أبي ؟ هل هذه هي الأبوة ؟ طوال حياتي وأنت تضع قدمي في طريق غير ما أهوي ولا أريد، حتي وإن كان رأيي الصواب ، أردت كلية الطب فأرغمتني على الزراعة، وأردت الزواج بامرأة أحبها ذات أصل ونسب فمنعتني بجفاء دون إبداء سبب، ودائما تفضل إخوتي علي بطريقة سافرة مؤلمة للنفس ، ماذا أفعل بك يا خليل؟؟
وانتقي حجرا كبيرا من الأرض ورماه به قائلا:
ـــ خذ هذا يا خليل فأنت به أولي من الأرض.

ثم أتاه كريم يتهادى بحجر ثقيل يحمله بعدما ذهب أخوه ، فرفع عينيه إليه فارتاع لهذا الحجر العظيم وشهقت نفسه ، فرمي به أباه وقال:

ـــ قد أكون أخطأت يوم رسبت عاما في دراستي الثانوية ، لكن أكان هذا يعطيك الحق بأن ترمي بي في غيابات السجن وتتهمني بالسرقة ، لا تدري بمن تعرفت في هذه الليلة، لقد ضاع مستقبلي أيها الرجل ، فأنا الآن مدمن ، وسارق وقاطع طريق.

ورحل .. فتلفت حوله ، وطافت عينه في أرجاء المكان في عبث وسدد بصره نحو الطريق المؤدي إلى الغابة فرأي ما يبلغ عشرة أفراد ما بين رجل وامرأة وطفل صغير، يحمل كل منهم حجرا مختلفي الأحجام.
وما انصرفوا عنه إلا وقد توارى خليل خلف الأحجار مكبل بها لا يستطيع حراكا، وهبت ريح بالغة السوء في عصفها وعبقها وما تحمله ، وحدث نفسه قائلا:

ـــ لابد أنني في حلم ، بل كابوس غبي أحمق سيقضي عليّ.
ـــ حتي وأنت في وضعك هذا سيء الأخلاق يا خليل.

قالها ذلك الشيء وهو جالس على حجر مرتفع عن الأرض كالكرسي.
فقال خليل مستهينا:
ــ وماذا يمكن أن يصيبني أكثر من ذلك؟ ، فليذهب الناس إلى الجحيم أيها الشيء الذي لا أعرف ما هو.
ــ قد يصيبك الكثير ، فكم من رجل أتى إلى هنا وكان أقل منك جرما ، وحمّله الناس نارا من نيران الأجمة ، لكنك ما زلت في البداية ، فانتظر ما قد يصيبك أيضا.

فقال مشدوها
ــ في البداية ، كيف! ، ألن يؤذن لي بالذهاب؟
ــ كلا يا خليل ما جاء أحد إلى هنا ورجع حيث أتى.

فتكاثر عليه الهم وزادت آلامه وأضناه اليأس وأيقن بالهلاك، فأراد أن يعجل به بنفسه ، فأخذ يرتم رأسه بجذع الشجرة في عنف ضربات متوالية ، فاستوقفه صوت قائلا:

ــ حسبك يا بني لا تقتل نفسك ، إني أحبك.
ــ من ؟ أمي ؟

وسالت عيناه بالدموع ..
ــ تبكي لأنك ولد عاق يا خليل ؟ تبكي لأنك أقسمت ألا تعرفني أو تزورني أو ترى وجهي العجوز الكئيب كما ذكرت ؟ تبكي لأنك قلت إنني امرأة لا تتناسب مع مركزك الاجتماعي الجديد ، ومنعك لأولادك من زيارتي ؟ ماذا أفعل بك يا خليل بعد كل هذا ؟ أتدري لو وضعت عليك هذا الجبل وهذه الأشجار الفحمة عليك أيكون كافيا.
فأطرق إلى الأرض لا يستطيع النظر إليها فأردفت قائلة:
ــ لكني أسامحك يا خليل!
ودمعت عيناها ثم قالت وقد اشتد دمعها إلي بكاء منهمر هطلت قطراته على صخره وهي تتلمس وجهه بكفيها:

ـــ نعم أسامحك يا بني .. أسامحك ، ولا أستطيع أن أرميك بحجر مهما رميتني بصخر الوجود.
فسقطت عنه بعض أحجاره لكنه لا يستطيع الحركة وأخذ يردد في ذلة وانكسار
ـــ أنا آسف يا أمي ، آسف.

ورفع نظره إليها فما وجدها فكرر أسفه بصوته المرتفع الباكي ، وأسند رأسه لجذع الشجرة ، وخيم عليه الألم ، وتحولت الصخور التي سقطت إلى تراب ، ورفع نظره فوجدها تقترب منه في بطء فقال متفاجئا:

ـــ زوجتي؟ أنت أقرب الناس إليّ ولم أسوؤك يوما ، كم أدخلت عليك البهجة؟ ورسمت على شفتيك البسمة؟ ، ليتك أتيت مبكرا.

فهطلت دموعها قائلة:
ـــ كفاك يا خليل ، أما علمت أين أنت حتي الآن ؟ هنا لا يجدي الخداع نفعا، كم كنت تطعن أنوثتي وأتغافل ، ولا ترجع عما تفعله بي من سوء ، كيف تستمر في خداعي وخيانتي وأنت تراني طيعة هادئة ساكنة لم أر الدنيا إلا من خلالك ولا أراك إلا الدنيا وما فيها ، ما الذي دفعك إلى ذلك ، ما الذي جرّأك ولست مقصرة في شيء ، كنت لكم كالشمعة مهما هبت عليها من ريح تتجاسر وتقاوم وتظل تحرق نفسها لمن حولها حتي احترقت فتيلتها لكم بلا شكر.

ثم قالت في أسي بالغ:
ـــ ماذا أفعل بك يا خليل ... لكني لن ألقمك حجرا فإن اليد التي دأبت إعطاء الحنان والود لا تمتد بسوء ، لكني سأرحل ، وسيأتي اليوم الذي تزرف من عينيك صخرا.

قام الأستاذ خليل من غفوته صارخا أشد ما يكون الصراخ ، ممتزجا صوته بالرعب والفزع والخوف ، مستغيثا لينجده أحد ، دفعت أسرته الباب في سرعة وعليهم أثر النوم ، مرددين:
ـــ مالك يا أبي ، كيف تشعر ، نحضر الطبيب ..

وانحنت زوجته عليه وأمسكت كفه بين كفيها، وجلست مها بجواره تدلك صدره بيدها ، وانطلق أحمد بملابس نومه يحضر الطبيب، وهرول كريم تجاه المطبخ فأحضر ماء وصبه في كوب ، فتناولته مها وسقته بيدها ..

قالت زوجته:
ــ ماذا حدث ؟ وكيف تشعر الآن؟
فانفجر باكيا ، وظل يبكي وينتحب على صدرها، ولم تنفع كلماتهم في تهدئته .

عبد الحميد بشارة

كاتب روائي وقاص مصري، صدر له رواية "يهوديت" و "بائع المناديل" مجموعة قصصية، ورواية "٢٠٧٦" ورواية "أمطار يوليو".

للتواصل:

الصفحة الرسمية للكاتب:

https://www.facebook.com/abdelhamed.bishara

الصفحة العامة لمؤلفاته:

https://www.facebook.com/abdulhamidbishara